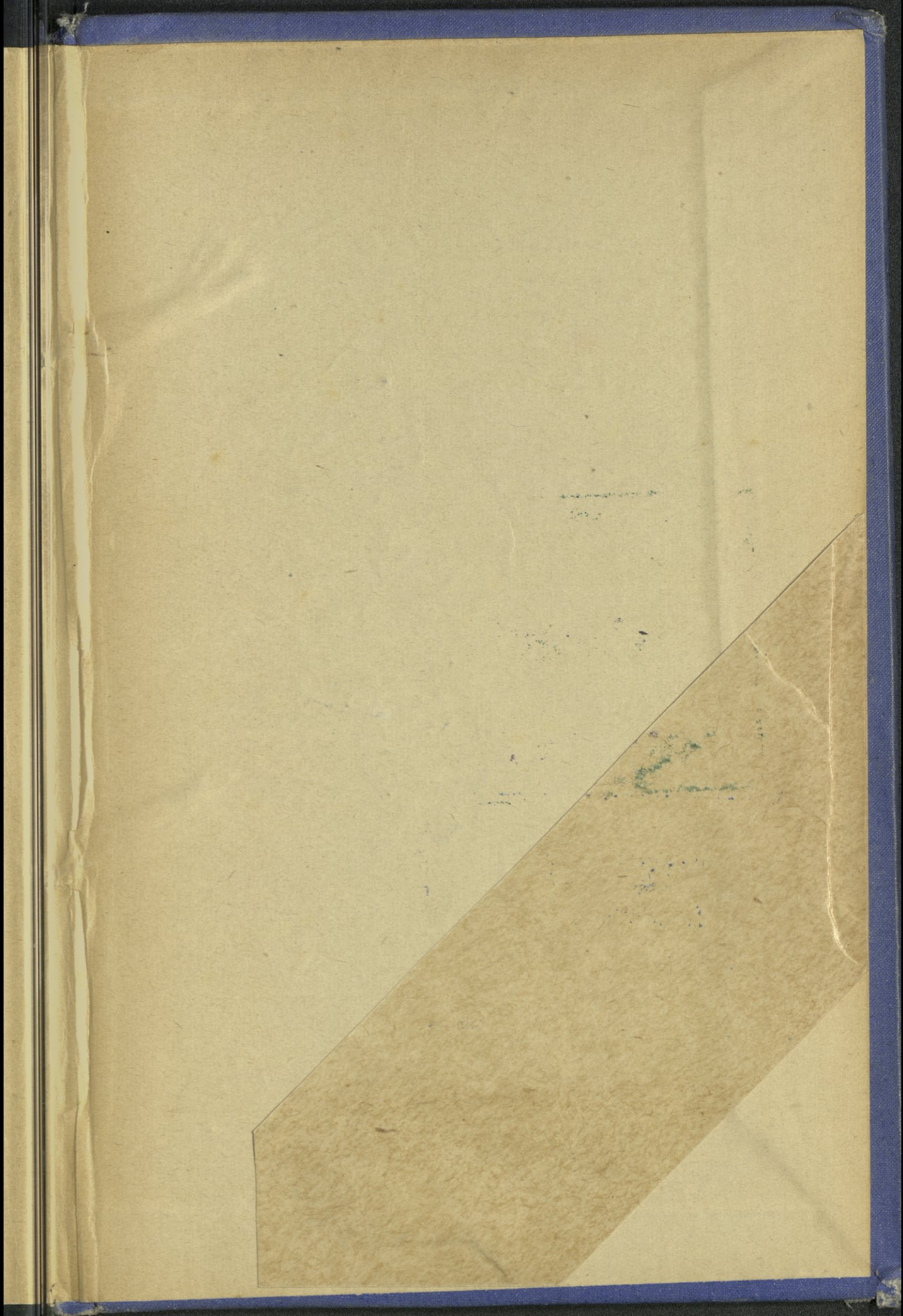


الاسلام دين الفطره

شاويش

٤٥٥



297

شاويش، عبد العزيز
الاسلام دين الفطرة.

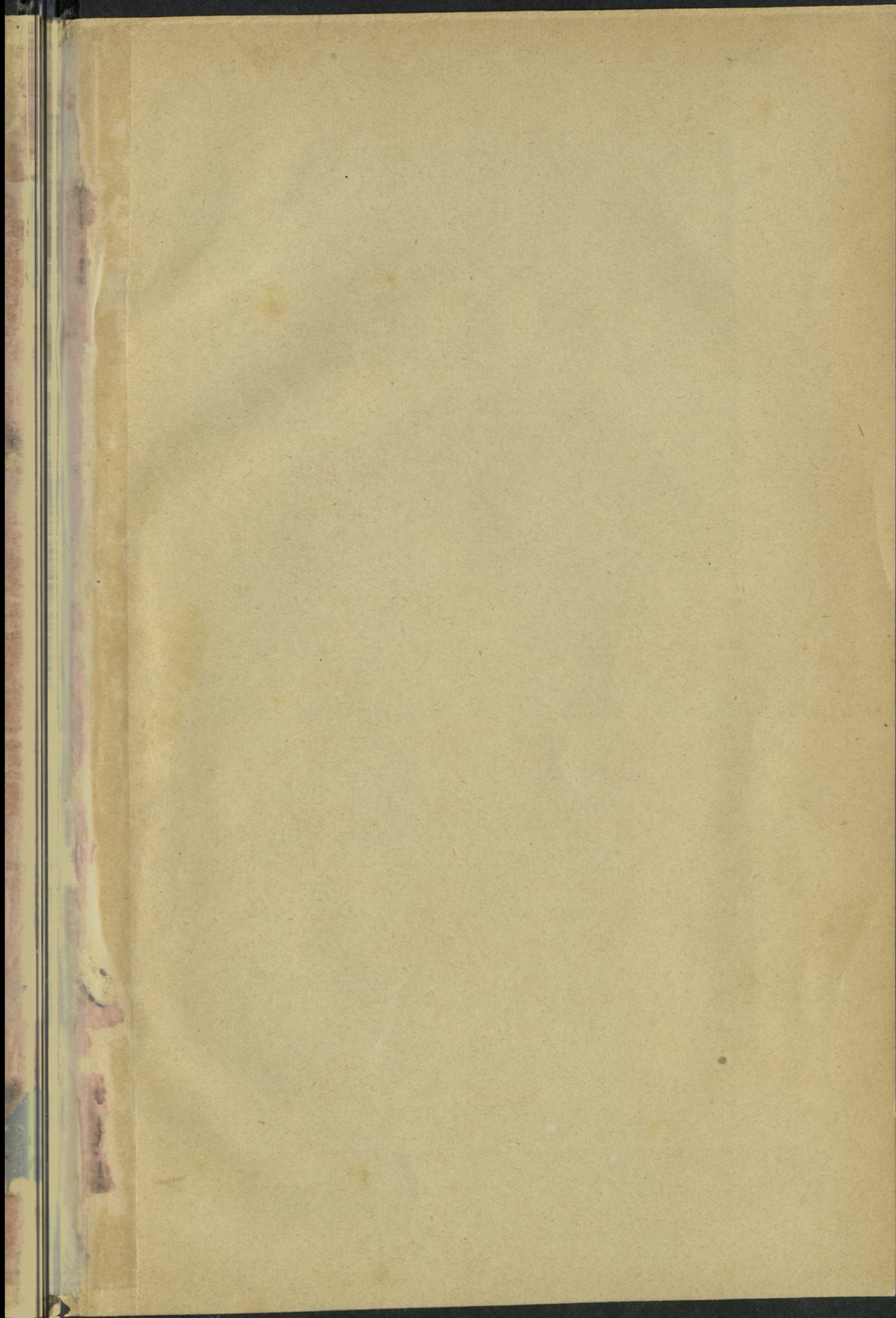
297

14 DEC 1986

-1 FEB 1973

SAFEY LIBI

117 JAN 1982



٢٨٤٥
و

297.

S537iA



لحضرة العلامة المنفصل الاستاذ

الشيخ عبد العزيز شاربش

من عمله في مؤتمر المستشرقين الجزائري سنة ١٩٠٥

حين كان أستاذاً للعلوم العربية في كلية اكسفورد

Cl. E
No 6

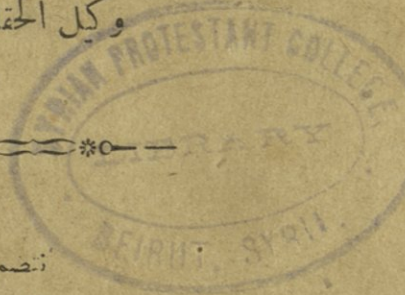
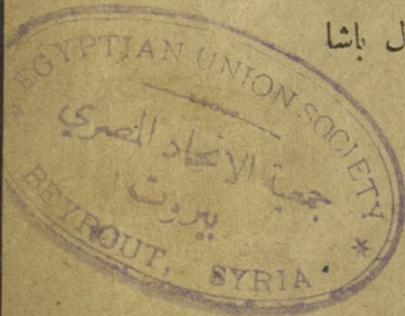
وعليه مقدمة بقلم ناشره

احمد على

تعليقاً على كتاب « الاسلام » للكونت دي كاستري

الذي عربته سعادة أحمد فتحي زغلول باشا

وكيل الحفانة



تضمن هذه المقدمة رأى الفيلسوفين

المشهورين : السيد جمال الدين الافغانى

والشيخ محمد عبده

38439

١٣٤٣٥١

مطبعة الهداية. بشارع كوبرى قصر النيل نمرة ٢٥

امام الباب القبلى لديوان الاوقاف العمومية

Griff. Cat. Jan. 1930

Faint, illegible handwriting at the top of the page.

Faint, illegible handwriting in the middle section of the page.

Faint, illegible handwriting at the bottom of the page.

الكتاب
٣

كتاب

الاسلام دين الفطرة

فهرست

كتاب الاسلام دين الفطرة

صفحة	
٢	مقدمة الطبعة الثانية
٢١	مقدمة المؤلف
٢٢	الحديث
٢٣	الفطرة والتوحيد
٢٨	النبوة وتقريرها والغرض الفطري منها
٤٠	هل أسس الاسلام على السيف؟
٥١	وجه كون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم عامة لجميع المكلفين
٦٠	اباحة التجميل بأنواع الزينة
٧٣	الرق في الاسلام ومطابقته لمقتضى الفطرة
٨٢	المرأة في نظر الاسلام
٨٦	فصل في تعدد الزوجات في الاسلام
٩٩	الطلاق
١٠٤	خاتمة

297

sh 531 A

الاسلام دين الفطرة

لحضرة العلامة المفضل الاستاذ

الشيخ عبد العزيز شاوني

من عمله في مؤتمر المستشرقين الجزائري سنة ١٩٠٥

حين كان أستاذا للعلوم العربية في كلية اكسفورد

وعليه مقدمة بقلم ناشره

احمد عيسى

تعليقاً على كتاب « الاسلام » للكونت دي كاستري

الذي عربه سعادة أحمد فتحي زغلول باشا

وكيل الختمانية

٤٤٥٤٣٤٣٤

تتضمن هذه المقدمة رأي الفيلسوفين

المشهورين : السيد جمال الدين الافغاني

والشيخ محمد عبده

٤٤٥٤٣٤٣٤

مطبعة الهداية بشارع قصر النيل نمرة ٢٥

أمام ديوان الاوقاف العمومية

East. Jan. 1930

مقدمة الطبعة الثانية

— ✧ — نظرة في كتاب الاسلام — ✧ —

للكونت هنرى دى كاسترى

طاعت شمس الاسلام من شبه جزيرة العرب التي انتشرت فيها
الامية وتاصلت بين اهليها عنجبية البداوة وخشونتها فاضاعت المشرقين
ونفذت الى القلوب اشعتها فملاها من قوة العقائد السامية فتضاءلت
حيالها قديمة الشرائع وحديثه النواميس فما وجد الجاحدون مناصاً من
الاعتراف مرغمين بانها ليست كشرائعهم بل تفوقها سمواً ورفعة
واحكاماً. وقال غلاتهم انها السحر. وقال المؤمنون انها التنزيل من حكيم حميد
ان الدين الاسلامي الحنيف وهو مجموعة مبادئ سامية وعقائد
عالية لقوى بنفسه غنى بوضوح محجته عن دفاع الاقلام لسموه عن متناول
الطعن والطاعنين. ولولم تكن للدين الاسلامي تلك المسكنة الرفيعة لما بسط
جناحي سلطانه على رعوس الامم من جنوبي فرنسا في جوف أوروبا الي

أقصى الشرق في أبد من الزمان لا يتجاوز قرنا واحدا فطأطأت له هامات
القياصرة ذلة وخضوعا وعنت لهيبته وجوه الا كاسرة استكانة وخنوعا
أولئك الا كاسرة الذين سادوا مملكة فارس التي كانت على عهد
دارا الا كبر احدى وعشرين ايلة وكانت احدى هذه الايلات مشتملة
على مصر وسواحل البحر الاحمر وبلوخستان والسند كما حققه «فرنسيس
لورمان» المؤرخ الشهير

وليست تلك القوة التي أخضعت زهاء مائة مليون من البشر في
قرن واحد هي قوة كتائب البدو الذين لهم فضل الفتح والغزو
بالاسياف والنبال وحدها بل انما هي قوة تلك الصفات الفاضلة التي
اشتمل عليها ذلك الدين القيم

وان دينا هذه قوته لفي غنى عن دفاع أبلغ البلغاء . وما مطاعن
الطاعين فيه الا كالغبار يعلو الجواهر الكريمة والالاء اليتيمة فلا يضيرها
منه شيء اذ أقل الذين يدينون به شأنا يستطيع أن يزيل هذا الغبار عنها
بغير عناء فتعود سيرتها الاولى من الاشرار والاتماع

*
* *

نظرنا في كتاب «الاسلام» الذي وضعه الكونت دي كاستري
وأخرجه للناس في ثوب عربي سعادة أحمد فتحى زغلول باشا وكيل
الحقانية المصرية نظرة أعقبتها ألف حسرة وكيف لا يتحسر المسلم عندما
يرى ان أوفر الاوروبيين عقلا وهو يدافع عن الاسلام لا يرى الا ان
ايمان المسلمين كايما الفحامين من المسيحيين ليس الا وجدانا عاديا

قوى في النفوس وتمكن من القلوب وقد تساوى في ذلك العالم والجاهل
والامير والحقير ولا مجال بعد ذلك لمناقشة الباحثين وتخاصم المنتقدين.
قال ذلك في معرض الدفاع عن المسلمين ثم ساق طائفة من أساطير
القرون الوسطى وأغانيتها التي جاء بها الوضاع المسيحيون في القرن
الثاني عشر وقد أملاها عليهم ذلك الفكر المشترك الذي كان السبب في
الحروب الصليبية. ثم سأل نفسه عن قول المسلمين لو علموا بتلك
الاساطير التي تنطف حقا وبغضا

وبديهي ان الكونت كاستري ماأورد تلك الاساطير الا ليعلمها
المسلمون ويقولوا قولهم فيها (١)

(١) قال الكونت هنري دي كاستري في الصحيفة السابعة ومايلها من
كتابه الاسلام :

فكل ناشد (من المسيحيين) كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة
أوثان مارقين وقد جعلواهم ثلاثة آلهة هم على ترتيب درجاتهم « ماهوم » —
ويقال ماهوم وبافوميد وماهوميد — وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) ثم « أبلين »
ثم « تر فاجان » وذهبوا الى ان محمداً — الذي هو عدوا الاصنام ومبيد الاوثان —
كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من ذهب كما كان يعتقد (الكر لوفنجيون)
وان المسلمين لما غلبهم الافرنج وردوهم الى أسوار سرقطه (مدينة باسبانيا استردها
الفرنج من المسلمين سنة ٥١٢ هجرية) عادوا الى أصنامهم فحطموها كما أنشد به
أحد منشدي ذلك العصر حيث قال :

« وكان أبلين الههم في مغارة هناك فتراموا عليه وأوسعوه شتماً وسباً وصلبوه
من يديه في أحد العمدان وجعلوا يدوسونه باقدامهم ويوجعونه ضرباً بالعصى
حتى هشموه وأما (ماهوم) فقد رموه في حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه
وتمشي عليه وتلك اهانة لم تصب الهاة قبله »

وهذا على ما يظهر هو ما عناه سعادة المعرب في مقدمته بقوله :
« على ان اشمزاز البعض مما جاء في هذا الكتاب (الاسلام)
من الاقوال التي ردها المؤلف ودل على خطأها بالبرهان لا يقابل
الفائدة التي نراها من نشره والذي يقصد الفائدة ويتحرى ما أخذها لا ينبغي
له أن يلتفت الى ما عساه يكون من تفور بعض القراء فانهم لو أنصفوا
لماتقروا (الى أن قال)

وأظن انه لا يختلف اثنان في أن من ألزم الواجبات حكاية
ما حكوه واشهار ما قالوه واذا كان الغرض في القسم الاول هو الرد عليه

ويظهر ان المسلمين لم يلبثوا ان تابوا من ذنبهم واستغفروا آلهتهم وأصلحوا
ما أتلفوه منها ولذلك أمر الامبراطور كارلوس بابطالها لما دخل سر قسطه كما جاء في قول
ذلك الشاعر : — (وقد أمر الامبراطور الفرنسيين فطافوا جميع أنحاء المدينة
ودخلوا المساجد والجوامع وبأيديهم منظار من حديد فكسروا بها ما هو ميد
وجميع الاوثان والاصنام) ولذلك يقول «ريشار» في أناشيده وهي جميلة لاشي
من الخرافة فيها الا انها زور وبهتان حيث يطلب من الله أن يوقع الفشل العميم بين
(أولئك الذين يعبدون صورة ما هو م) ثم جعل يحرض الاشراف على الحرب المقدسة
وينصحهم أن ينكسوا أصنام المسلمين — بقوله — قوموا ونكسوا صنم ما هو ميد
وترافجان وصبوهم على النار وقدموهم الى ربكم —

وذهبوا الى ان صورة ما هو م كانت تصنع من أنفاس الاحجار والمعادن باحكم
صنع وأدق اتقان ومن قرأ وصفه في أناشيد «رولان» كان يحلف ان ذلك الشاعر
انما يصف عن خبر وعيان اذ يقول :

وكانت كلها من الذهب والفضة لو شاهدها لا يفت بانه لا يمكن للعقل ان
يتصور أجمل منها عظيمة الشكل لطيفة الصنع تلوح على وجهها سمات الشهامة . كان
ما هو م من ذهب وفضة يأخذ بريقها بالابصار قد وضع فوق فيل على جلسة من

فليكن الغرض من هذا القسم معرفة مارميننا به وهذا بلا ريب ينتج
الرسوخ في العقيدة عندنا وينتج أيضاً اقتناع الواهمين بضد ما توهموه
وهذه النتيجة تقصد لكبار العقلاء ومحبا أفاضل العلماء «

فسعادة المعرب يتحدد معنا في الشعور بوجود ادحاض تلك
الاهام التي تملك عقول الغربيين عن الدين الاسلامي الخفيف دين
الفطرة التي فطر الله الناس عليها لان أقل نظرة في تلك الاقوال تجعل
القارئ يعتقد انه يقرأ حكاية في كتاب « ألف ليلة » المملوء بأوصاف
الجان والعفاريت . أو قطعة من شعر هو ميروس المفعم بخرافات اليونان

أجمل المصنوعات خاويًا من جوفه فيري الضوء من خلاله مرصعاً بنفائس الاحجار
المضيئة يرى الناظر باطنه من الظاهر وهو صنع عز عن المثال والنظير «
ولما كانت الآلهة تنزل الوحي وقت الشدائد وانهزم المسلمون في احدى
غزواتهم بعث قائدهم الى مكة يطالب به قال الراوي فجاء الاله محمد في موكب عظيم
يضرب بالطلب والمزامير ضربا يسمع له دوى قاصف وبعضهم يغنى بالزمار والاخر
بصفارة من الفضة والكل حولهم يرقصون ويغنون بأعلى أصواتهم وأقبلوا به فرحين
حيث المجلس معقود والخليفة الديني في انتظاره فلما راه قام يعبده بخشوع وخشوع
ثم أخذ ريشار بعد ذلك يقص كيفية مناجاة أولئك الوثنيين لذلك الصنم النبي
وصفه بالتجويف وان لاشئ في باطنه الا ويرى من الخارج فقال :

وقد وضعوا في جوفه عفرية استحضره السحرة وصار ينط ويعربد ثم أخذ
يكلم المسلمين وهم يسمعون

ولقد زاد بعضهم لذلك الصنم حتى جعلوه علامة على الدين الاسلامي كما
جعلوا الصليب علامة للدين المسيحي فروي « بودوان » في نشيده علي الكوتسه
« يوتيو » انها لما أرادت ان تعتق الاسلام امام صلاح الدين قالت أريد ان
أعبد محمداً فأتوني به فلما صار بين يديها خرت ساجدة اليه «

ومعارك الآلهة وملاعب الأرباب وولائمهم وحفلاتهم التي يزعمون
انه زفس (المشترى) كبير الآلهة كان يقيمها للإنس والطرب مع
زوجته الآلهة هيرا ممثلة الهواء وربة الزواج في هذا العالم . وأفلون ممثل
الشمس واله نور واثينا الهة الحكمة والصناعة وارييس (المريح) اله
الحرب ورب الفتك والبطش . والزهرة آلهة الجمال والتهتك وربة
الغرام والعشق . وفوسيد اله البحار وهيفست اله النار ومثير البراكين
وهائج الصواعق . واذيس اله الظلمات والموت وولى العالم السفلي
فيمثل هذه الصفات الخرافية يريدون أن يصفوا لنا ديننا قوما
أساسه الاقوى «قل لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا سبحانه وتعالى عما
يصفون»

فأين تلك الخرافات التي تصدى الكونت دى كاسترى لادحاضها -
وقد نقلنا طرفاتها في الصفحة (الرابعة وما بعدها) من دين الله الذي هو
آخر الأديان السماوية . ومن المؤكد أن للاخير من كل شئ ميزة
ليست لما تقدمه

واذا كان موسى وعيسى عليهما السلام قد أرسلوا الى بنى اسرائيل
فان محمدا صلى الله عليه وسلم أرسل للناس أجمعين قال الله تعالى «ما كان
محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» وقال
«وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً»

وهذا التصريح لم يرد في كتاب سماوى خلا القرآن الكريم
ولقد امتاز القرآن بتقرير مبدأ المساواة العام وهو الذي رفع

مستوى الانسانية الى اسمى الدرجات فجعل الامم كاسرة واحدة أبوها
آدم والام حواء . قال الله تعالى

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل
لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » وقال « يا أيها الناس قد جاءكم
برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا »

فالخطاب في النهي والامر والارشاد والوعظ للناس جميعا
ولقد اشتمل القرآن على اصول الشرائع وقواعد المعاملات
وأيمامة استمسكت به ولو كانت في رأس الجبل بعيدة من كل حركة
عمرانية لا يمضي عليها نصف قرن حتى تكون من أرقى الشعوب مدنية
وبأسا . انظر الى قوله تعالى : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى
أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »

فاذا كان الناس فيما بينهم أمناء أوفياء وحكامهم عادلين مقسطين
فأى تقدم يستعصى عليهم بعد ذلك مناله وأى عظيم من الامور يشق
عليهم احتماله

الا أن تقدم المسلمين في الثلاثة القرون الاولى من الهجرة ما كان
الا اثر من فيوض ذلك الدين القويم . ولو انه كان دين وثنية
وكان المسلمون يعتقدون بأن فيها — الارض والسماء — آلهة الا الله
القوي الفعال كما وصفهم من روى عنهم الكونت دي كاستري ماروى .
لما كان لهم ذلك الشأن الرفيع الذي بلغوه في أوائل عصر الدولة الاموية
في الشام والاندلس أو في عهد الدولة العباسية قبل اغارة التتار . ولم

يحل بالمسلمين ما حل بهم من الويل الا بعد أن نبذوا العمل بدينهم
ظهيراً وأصبح اتباع ما أمرهم به الشرع نسيامنسيا
نشأ الدين الاسلامي على التسامح ففسح من صدره لكل أمة
ولم يكتف بذلك بل أخذ على عاتقه حمايتهم اذا احتسوا به وتأمينهم اذا
استأمنوه ولم يرو عنه شيء من ارتكاب الفظائع التي سمعنا بمثلها في تاريخ
الشهداء في مصر من نحو ما أصاب القبط من الرومان ولا ما أصاب العلماء
والفلاسفة في أسبانيا ولا ما أصاب البروتستانت في فرنسا . وليس هذا
التسامح خلقاً في أعلام المسلمين وأمرأهم يذهب بذهابهم بل هو أصل من
أصول الدين نفسه . قال تعالى : « لا اكره في الدين » وقال : « ولو شاء
ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك
ولذلك خلقهم »

وقد خاطب تعالى النبي الكريم بقوله : « انك لا تهدي من أحببت
ولكن الله يهدي من يشاء » وقال « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا
مؤمنين »

وإذا كان التمدن العصري لم يصل الى اعلان حقوق الانسان
ونشر حرية الاعتقاد الا بعد أن أفنى الفلاسفة أعمارهم وأذابوا في
التفكير وطول النظر والاناة أذهانهم ثم ختموا ذلك بالثورة الكبرى
فلقد سبقهم الاسلام بتقرير هذا المبدأ السامي قبل بضعة عشر قرناً
فقال : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »
وما كان لاحد من رجال الدين الاسلامي وفيهم شيوخ الاسلام

والخلفاء أنفسهم أن يغيروا أو يبدلوا فيما قضى به الله في كتابه ذلك
الكتاب الكريم الذي هو المعجزة المستمرة الظهور وليس هناك
من كتاب جمع بين دفتيه ما جمع القرآن الكريم
من أجل هذا لم يكن لطاعن أن ينال من ذلك الدين القيم منالا
ولو ارتفع فكه الاعلى الى أعنان السماء وانخفض فكه الاسفل الى صميم
الارضين . قل لو اجتمعت الانس والجن علي أن يأتوا بمثل هذا
القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

ولقد عجبت من قوم يفترون على هذا الدين القويم من الاباطيل
ما يفترون ويعزون لذلك الكتاب الكريم من الاضاليل ما يعزون مما
تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدأً
وما كان عجبى الا من الاطلاع على تلك الطقوس الغريبة التي
تستعمل في بعض الكنائس بصورة رسمية لتنصير المسلمين كأنهم من
عباد الاصنام

فلقد نقل سعادة فتحي زغلول باشا في آخر معربه — الاسلام —
الصيغة المستعملة في الكنيسة اليونانية لخروج المسلم عن دينه
ولقد ذكر الكونت دي كاستري انه نقل هذه الصيغة (١)

(١) هذا نص الصيغة المذكورة تقلا عن الصحيفة ١٥٧ وما بعدها من
كتاب الاسلام

يجب على المرید أن يصوم أسبوعين ويتعلم الصلاة التي علمنا اياها سيدنا عيسى
اليسوع في أناجيله المقدسة وكذلك علامة الدين وبعد ذلك يلبس القس ثوبه الكهنوتي ويأتي
بالمرید الى حظيرة التكريز بحضور المؤمنين الذين يرغبون في الحضور ويوقفه امام

من اللغة اللاتينية الى اللغة الفرنسية عن كتاب سيلبورج المطبوع سنة

١٥٩٥

على أن الكونت قد أحسن صنعا بنعته هذه الصيغة بالغرابة
وانها مشتملة على خرافات من السباب

لا جرم أن واضعي هذه الصيغة قد ضلوا ضلالاً بعيداً في فهم
الاسلام وغلوا في الكراهة لرسول الله وكتابه المنزل الذي يأمر بالعدل
والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر وأثبتوا انهم
أشد أعداء الاسلام تعصباً وأقلهم ادراكاً لحقائق الاشياء

ومن قصور النظر وضعف الحجة أن يمدح المرء دينه بسب
دين غيره ويحاول رفع قدره بالخط من كرامة سواه. ليقبل كل في دينه

الهيكل مكشوف الرأس ثم يقول له أنت يامن يترك اليوم ديانة بنى سارة من غير ان
تكون مجبراً على ذلك ولا خائفاً أو مغشوشاً بل باختيارك عن طيب نفس وقلب
طاهر محب للمسيح ودين المسيح قل كما أقول انى أقف عن ديانة بنى سارة كلها
والعنم.... (وذكر اسم محمد صلى الله عليه وسلم) الذي يجده بنو سارة ويقولون
انه نبي الله ورسوله فيظهر المرید رضاه بنفسه ان كان يعرف اللغة اليونانية أو
بواسطة مترجم ان جهلها أو بواسطة وصيه ان كان قاصراً ويتلو القس بعد ذلك
الصيغة الآتية والمرید يكررها من بعده فاذا تم القول قال القس فلتدع الرب. والناس
يحيونه: رب ارحم الى آخر صيغة الدعاء ويختمون بلفظة آمين ويارك القس للمريد
ويصرفه ويصير نصرانياً من اليوم التالى لهذا الاحتفال
أماما يقوله القس ويكرره المنتصر فهو ما يأتى :

أنا الذي في هذا اليوم أترك ديانة بنى سارة حباً في الديانة المسيحية بغير أدنى
اكرام ولا اضطراب ولا غرور ولا غواية بل عن طيب نفس محبة في المسيح ودين

ما يريد وينسب اليه من التعاليم ما يستطيع أن ينسب ولكن هذه الارادة
لا تقتضى لعن الارض والسماء وما بينهما دلالة على الابتعاد عن ذلك الدين
كتب الكثير من ذوى الفضل في الدفاع عن الاسلام ورد
شبهات المبطلين فأرأينا واحداً شط ذلك الشطط الذي صوره الكونت
دى كاسترى في كتابه مائلا للبيان

المسيح انى أقلع عن ديانة بنى سارة كلها وألعن (م) الذي يعجده بنو سارة
ويقولون انه نبى الله ورسوله وألعن ع (وذ كر اسم الامام على كرم الله وجهه)
وصهر النبى والحسن والحسين ولديه وأبا بكر وعمر وطلحة ومعوية وزيداً وأبى يزيد
والسيد وعثمان وجميع صحابة محمد وأنصاره وخلفاءه والعن (وذ كر أسماء سيداتنا)
عائشة وزينب وأم كئوم زوجات محمد الاوليات ثم البقية اللاتي هن أكثر جرماً
ومعهن ابنته فاطمة وألعن ما يقال له (ثم ذكر القرآن الكريم) أعني به سفر محمد
أو كتابه الذي ادعي انه نزل عليه من السماء على لسان الملك جبريل وكذلك
مذهبه بأجمعه وقواعد دينه وقصصه الكاذبة وأسراره وسنته ومآتي به من
الكفريات وألعن جنة محمد التي يقول ان فيها أربعة أنهار تجري فيها المياه العذبة
ولبن لا يحمض وخمر لذيد وعسل نقى ويقيم فيها بنو سارة يوم القيامة التي تقوم
بعد خمسمائة ألف عام مع نساءهم منهمكين في الشهوات البدنية ويجلسون تحت شجرة
سدره ويأكلون من الطيور ما يشتهون وجميع فواكه الخريف ويشربون من عين
الكافور وعين الزنجبيل التي تسمى سلسبيلا ويشربون أيضاً نبيذاً مزاجه من
تسنيم وتعظم أجسامهم حتى تبلغ السماء طولاً رجالاً ونساءً ويتمتعون بالعشق
والغرام بدون ملل بحضرة الله لانه يقول : ان الله فوق كل حياء وألعن (ثم ذكر
الملائكة) الذين يسميهم محمد هاروت وماروت . وألعن أحاديث محمد وما نقله
عن العهد القديم وألعن ذلك المذهب الكاذب وذلك الوعد الذي يدعي فيه محمد
انه سيكون فاتح الجنة وانه يدخلها سبعون ألفاً من بنى سارة الصادقين وان الله يحكم
في المجرمين فيغلون بالسلاسل من رقابهم ثم يدخلون الجنة أيضاً ويقال لهم عتقاء محمد

﴿ رأى السيد جمال الدين الافغاني ﴾

تدبر ما كتبه العلامة فيلسوف الشرق المرحوم جمال الدين الافغاني
في ردالشبهات فهل ترى في عبارته ما ينم عن كراهة لدين من الاديان .
كلا وهذا نص بعض عباراته في هذا الشأن

الامة الاسلامية

« جاءت الشريعة المحمدية والديانة السماوية فأشربت قلوبها
تلك العقائد الجليلة ومكنت في نفوسها تلك الصفات الفاضلة وشمل ذلك
آحادهم وورسخت بينهم تلك الاصول الستة بدرجة يقصر القلم دون
التعبير عنها فكان من شأنهم أن بسطوا سلطانهم على رؤوس الامم من

والعن (ثم ذكر شريعة محمد صلي عليه وسلم) في الزواج والطلاق وتطهير الزانيات
وعدد الزوجات والسراري وجميع مذهبه المنجس في جميع هذه الاشياء
والعن ماجاء به م... من السب في الله (...!) حيث يقول انه يضل من
يشاء ويهدي من يشاء وان الله لو شاء لقتل بعضنا بعضاً وانه يفعل ما يريد وانه فاعل
الشر واخير معاً وهكذا الصدفة والبخت وانهما المؤثران في كل شيء
والعن أ كذوبة م... التي يقول فيها ان سيدنا وألها عيسى اليسوع هو ابن
مريم أخت موسى وهارون وانه ما ولد من اللحم بل حملته أمه من روح الله وانه قد
الطيور لما كان صيباً من الطين وتنفخ فيها فصارت حية والعن مذهب م... الذي
يقول فيه ان المسيح ليس ابن الله بل نبي الله ورسوله لانه ليس لله شريك وان
الذين يقولون ان المسيح ~~شريك الله~~ سيعذبون في نار جهنم ~~شريك الله~~
والعن قول م... ان لله في مكة بيتا للصلاة بناه ابراهيم واسماعيل يسمونه الكعبة
ويأمر بأن المصلين يولون وجوههم قبله اينما كانوا والعن ذلك المعبد نفسه الذي
يقولون ان في وسطه حجراً كبيراً يمثل الزهراء ويقدمون هذا الحجر الذي يقال
بان ابراهيم تعرف عليه بهاجر أو عاتل فيه جملة ما أراد أن يقرب اسحاق!! بان

جبال الالب الى جدار الصين في قرن واحد وحشوا تراب المذلة على رؤوس الا كاسرة والقياصرة مع أنهم لم يكونوا الا شرذمة قليلة العدد نزره العدد ولم ينالوا هذه البسطة في الملك والسطوة في السلطان الا بما حازوا من العقائد الصحيحة والصفات الكريمة . هذا الى ما جذبته مغناطيس

الذين يزورون هذا المعبد يضعون احدي اليدين فوق الحجر ويمسكون الاذن بالثانية ثم يدورون حوله حتى يأخذهم الدوار فيخرون الى الارض وألعن (ثم ذكر اسم) مكة ذاتها وأرضها كلها والحجارة السبعة التي يرميها فيها بنو سارة ضد المسيحين وجميع صلواتهم وعباداتهم وشعائرهم ومذاهبهم

وألعن قصة (وذكر اسم محمد صلى الله عليه وسلم) في الناقة التي يقولون انها خصت لله فعقروها فانتقم منهم لاجلها وألعن الذين يعبدون نجم الصباح (!....) أعني بها الزهراء والشعري التي يسمونها الكبرى وألعن جميع قواعد (وذكر اسم محمد صلى الله عليه وسلم) التي يشتم فيها النصارى ويقولون انهم كافرون ومشركون ويهيج بنو سارة علي قتلهم وابدانهم ويقولون ان مقاتلتهم هي طريق الله وان من مات من بنو سارة في محاربتهم يكونون من أبناء الله ولهم الجنة (!....)

وألعن تعاليم م (وذكر الاسم الكريم) النجسة في الصلاة حيث يقول ان من لم يجد ماء فليأخذ تراباً دقيقاً ويمسح به وجهه ويديه وألعن قول م... ان الانسان خلق من طين وقطرة ماء وودود الحكمة ومادة متأكلة

وفوق ذلك كله ألعن (استغفر الله العظيم) الذي يقول عنه انه اله فرد كامل لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد

وعليه ألعن ما تقدم كله وم... نفسه و... الكامل (!....) وابتعد عنه والتحق بالمسيح وهو الحق وحده واعتقد بالأب والابن وروح القدس

ثم يتبع ذلك تلخيص المذهب المسيحي ويختتم المرید الصيغة بالعبارة الآتية واذا كنت أقول ما أقول عن غش أو خيانة لا عن اعتقاد ويقين وقلب يجب اليسوع فعلي اللعنة ولتكن روعي مع الشيطان

فضائلهم من مائة مليون دخلوا في دينهم في مدة قرن واحد من أمم
مختلفة مع أنهم كانوا يخيرونهم بين الاسلام وشيء زهيد من الجزية
لا يثقل على النفوس أداؤه هكذا كان حال هذه الامة الشريفة من
العزة ومنعة السلطان (الى أن قال)

فأفسدوا (أى الطبيعيون) أخلاق الملة الاسلامية شرقا وغربا
وزعزعوا أركان عقائدها وساعدتم مد الزمان على تلويث النفوس
بالاخلاق الرديئة وتجريدها من السجايا الكاملة التي كان عليها أبناء هذه
الملة الشريفة حتى تبدلت شجاعتهم بالجنين وصلاتهم بالخور وجرأتهم
بالخوف وصدقهم بالكذب وأمانتهم بالخيانة ووقع المسخ في همهم
فبعد ان كان مرماها مصالح الملة عامة صارت مقصورة على المنافع الشخصية
الخاصة وعادت رغباتهم لا تخرج عن الشهوات البهيمية . وكان من عاقبة
ذلك أن جماعة من قزم الافرنج صدعوا أطراف البلاد السورية وسفكوا
فيها دماء آلاف من أهاليها الابرياء وخرّبوا ما أمكنهم أن يخرّبوا واثبتوا
بها نحو مائتي سنة والمسلمون في عجز عن مدافعهم مع أن الافرنج كانوا
قبل عروض الوهن لعقائد المسلمين وطروء الفساد على أخلاقهم في قلق
لا يستقر لهم امن على حياتهم وهم في بلادهم خوفا من عادية المسلمين
وكذلك قام جماعة من أوباش التتر والمغول مع جنكيز خان واخترقوا
بلاد المسلمين وهدمو كثيرا من المدن المحمدية وأهدروا دماء ملايين
من الناس ولم تكن للمسلمين قدرة على دفع هذا البلاء عن بلادهم مع أن
مجال خوفهم في بدء الاسلام على قلة عددهم كان ينتهي الى أسوار الصين

وما نزل بالمسلمين شي من هذه المذلات والاهانات ولا رزئوا
بالتخريب في بلادهم والفناء في أرواحهم الا بعد ما كلت بصائرهم ونغلت
نياتهم وما زج الدغل قلوبهم وخربت أماناتهم وفشا الغل والادهان بينهم
ودار كل منهم حول نفسه لا يعرف أمته ولا ينظر الى ملته فأصبحوا بقناة
خوارة بعد أن كانت قناتهم لا تلين لغامز الا أن بقية من تلك الاخلاق
المحمدية كانت لم تزل راسخة في نفوس كثير منهم كامنة في طي ضمائرهم
فهي التي أهرضتهم من كبوتهم وحملتهم على الجدي في كشف السطوة الغربية
عن بلادهم فأجلوا الامم الافرنجية بعد مئين من السنين وخلصوا البلاد
السورية من أيديهم وطوقوا الجنكيزيين بطوق الاسلام وألبسوهم
تيجان شرفهم ولسكنهم لم يستطيعوا حسم داء الضعف واعادة ما كان لهم
من الشوكة الى المقام الاول فان ما كان من شوكة وقوة انما هو أثر العقائد
الحقة والصفات المحمودة فلما خالط الفساد هذه وتلك تعسر عود السهم
الى النزعة. ولهذا ذهب المؤرخون الى ان بداية الانحطاط في سلطة
المسلمين كانت من حرب الصليب والاليق أن يقال ان ابتداء ضعف
المسلمين كان من يوم ظهور الآراء الباطلة والعقائد الدهرية في صورة
الدين وسريان هذه السموم القاتلة في نفوس أهل الدين الاسلامي

الشعب الفرنسي

شعب كان قد تفرد بين الشعوب الاوربية باحراز النصيب
الاوفر من الاصول الستة فرفع منار العلم وجبر كسر الصناعة في قطعة
أوربا بعد الرومانيين وصار بذلك مشرقا لتمدن في سائر الممالك الغربية

وبما أحرز الفرنسيون من تلك الاصول كانت لهم الكلمة النافذة
في دول الغرب الى القرن الثامن عشر من الميلاد المسيحي حتى ظهر فيهم
(فولتير) و (روسو) زعمان حماية العدل وأحيا ما بلى من عظام الناتور اليسم
(الطبيعيين) ونبذا كل تكليف ديني وغرسا بذور الاباحة والاشتراك
وزعما ان الآداب الالهية جعليات خرافية كما زعما ان الاديان مخترعات
أحدثها نقص العقل الانساني وجهر كلاهما بانكار الالهية ورفع كل
عقيرته بالتشنيع على الانبياء (برآهم الله مما قالوا) وكثيراً ما ألف فولتير
من الكتب في تخطئة الانبياء والسخرية بهم والقدرح في أنسابهم وعيب
ما جاؤا به فأخذت هذه الاباطيل من نفوس الفرنسيين ونالت من
عقولهم فبندوا الديانة العيسوية ونقضوا منها أيديهم وبعد ان أغلقوا
أبوابها فتحوا على أنفسهم أبواب الشريعة المقدسة في زعمهم شريعة
الطبيعة وزادهم الهوس في بعض أيامهم حتى حمل لفيفاً من عامتهم على أن
يتناولوا بنتا من ذوات الجمال فيهم ويحملوها الى محراب الكنيسة
ونادى زعيم القوم : « أيها الناس لا يأخذكم الفزع بعد اليوم من
هدهدة الرعد ولا التماع البرق ولا تظنوا شيئاً من ذلك تهديداً لكم
من اله السماء يرسله عليكم ليعظكم به ويزعجكم عن مخالفته كلا فهذه
كأثر الطبيعة (الناتور) ولا مؤثر في الوجود سواها فخلوا عن
أعناقكم قيود الاوهام ولا تقيموا لانفسكم لها من خواطر ظنونكم وان
كانت العبادة من رغائب شهواتكم فهاهي العذراء قائمة في المحراب على
مثال الدمية فاسجدوا لها ان شئتم »

والاضاليل التي بها قوا تير وروسو هي التي أضرمت نار الثورة
الفرنساوية المشهورة ثم فرقت بعد ذلك أهواء الامة وأفسدت أخلاق
الكثير من أبنائها فاختلقت فيها المشارب وتباينت المذاهب وأوغلوا
في سبل الخلاف زمناً يتبعه زمن حتي تبين صدعهم وذهب كل فريق
يطلب غاية لا يرى وراءها غاية وليس بينها وبين غايات سائر الفرق
مناسبة وانحصر سعي كل قبيل في التماس ما يواتي لذته ويوافق شهوته
وأعرضوا عن منافعهم العامة وأعقب ذلك طروء الخلل لسياستهم
الخارجية شرقاً وغرباً (لعله يشير الى حالة فرنسا أيام وضعه هذا
الكلام منذ نيف وأربعين عاماً)

نعم ان نابليون الاول بذل جهده في اعادة الديانة المسيحية الى
ذلك الشعب استندرا كما لشأنه لكنه لم يستطع محو آثار تلك الاضاليل
فاستمر الاختلاف بالفرنساويين الى الحد الذي هم عليه اليوم . هذا
الذي جر فرنساويين للسقوط في عار الهزيمة بين يدي الجرمانين
وجلب اليهم من الخسائر ما تعسر عليهم تعويضه في سنين طويلة - انتهى -

*
* *

هذا لسان صدق من السنة المسلمين ينطق على خصمائهم بالحق ويعير
غير المستمسكين بدينهم من المسيحيين ويقول لهم ان نبذم الدين انما هو
الذي عاد عليهم بالانهزام أمام أسياف بروسيا وهو في جداله انما يجادل بالتي
هي أحسن معتمداً على قوة الحجة والبرهان . فأين هذا من عمل أولئك
الحمقى الذين يعتمدون في تأييد دينهم على السباب والشتائم واللعنات الوقحة

حتى وهم قائمون يصلون في الكنائس كما أثبت الكونت دي كاستري ذلك
﴿ رأي الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ﴾

ولم يكن المرحوم السيد جمال الدين الافغانى وحده هو الذى تفرد
بهذه المنزلة السامية فى جدله بل ان نابغة الشرق ونبراس مصر المرحوم
الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الاسبق كان وهو فى أشد انفعال
فى جداله مع وزير خارجية فرنسا يتنكب الحط من دين خصمه واليك
نبذة من قوله فى هذا المعنى

*
* *

« هذه هى العقيدة السامية أو الدعوة المحمدية أو المدنية الاسلامية
ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة فى قاصية من الارض ولم يتلمظوا
بشئ من نعيم الحضرة ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة حتى بلغت بهم
ما بلغت واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ثم بلغوا بها من رقة
الوجدان وصفاء العقل مبلغاً مكنهم من التلطف بالامم حتى وقعوا على
ما كان خفياً لديها وكشفوا ما كان مستوراً عندها واستخرجوا من كنوز
معارفها ما ظهر فضله على الاوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية » - انتهى -

*
* *

فعلى هذا الوتر يوقع كبار الكتاب الاسلاميين نغمات البحث
مع المسيحيين فلا يؤلمون لهم عاطفة ولا يحركون عليهم من حفيظتهم
ساكنوا ولا يثيرون فى نفوسهم ما كان كامناً بل هذا سعادة معرب كتاب
الاسلام لم يغمز دين المسيحيين بكلمة والقلم فى يده يألم من وطأة ما ينقله

الى لسان أمته من كلم أولئك الذين روى عنهم الكونت دي كاسترى
ماروى وكل هذا عملاً بالتسامح الاسلامي الذي ذهب مثلاً بين العالمين

*
**

وخير من كتب على هذا الأسلوب في العهد الاخير حضرة
الاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش نزيل الاستانة الآن

فلقد وضع وهو استاذ للغة العربية في جامعة اكسفورد بانكلترا
كتاب - الاسلام دين الفطرة - فماترك بعده كلمة لقائل ثم قدم
كتاباه الى مؤتمر المستشرقين الذي عقد في الجزائر فبهت الذين تذوقوا
طعم البلاغة وقوة الحججة من خلاله وقد طبع في سنة ١٩٠٥ وتقد ما طبع
منه وتشوف العارفون بقدر الاستاذ الى اعادة طبعه

وقد خار الله لي وأنا ألقب صحائف الكتب على أثر نظرتي في
كتاب «الاسلام» للكونت دي كاسترى ان عثرت على نسخة لدى صديق
من أفاضل مريديه قد قيد الاستاذ بخطه في هامشها شرحاً وتفصيلات
لم تكن في أصل الكتاب فزادته قوة حججة وجلاء شرح وقد رأى ذلك
الصديق الصادق ان أبلغ رد على من تصدى صاحب كتاب الاسلام
لتفنيد مزاعمهم هو نشر مطوى ذلك الكتاب فكنت على رأيه لان
الاستاذ أقدر من كتب على صد غارة الاقلام والذود عن حمى دين الاسلام
لذلك أرجو أن أكون قد سلكت الحججة الواضحة واهتديت الى
الصراط المستقيم وان في ذلك الكتاب لبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد

أحمد حلمي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

زارني ذات يوم وأنا في اكسفورد من بلاد الانكليز ثقيف
من نجباء طلبة العلم في كليتها الجامعة فما كاد يستوى بهم المجلس حتى
أخذنا نتحدث في أمر الشرق والشرقيين ومالهم من الاخلاق
والعادات والاحوال التي تبين في كثير من الوجوه ما عليه أهل أوروبا
الآن حتى أفضى بنا المقام الى الكلام في الاسلام فوجدت من خلال
حديث القوم انهم لا يكادون يفقهون للاسلام معنى سوى انه دين
الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات وأن المسلمين يعبدون محمداً كما
يعبد النصارى المسيح بن مريم وما زادوني فيهم بصيرة فلطالما قابلت
من أمثالهم ما أوقفني على مبلغ علم معظم القوم بهذا الدين الخفيف
فأخذت اذذاك أبين لأئتك الافاضل أصول الدين الاسلامي
وقواعده وحكم بعض تكاليفه فكنت أرى القوم يتدبرون ما أقص
عليهم من غير أن يستهوى نفوسهم تعصب ولا يعمى قلوبهم عناد أو جحود
بل نبذوا وراء ظهورهم جميع ما كانوا يلقتونه منذ المهدي من النقائص
التي مثلت لهم الاسلام في أبشع صورة وأقبحها ولم يكذب ينتهي بنا

الحديث حتى انطلق أحدهم قائلاً «يخيل لي أيها الشيخ ان هذا الدين لا ينافي
الفطرة في شيء» (Natural religion) فأجبتة اذذاك — وقد تذكرت
قوله عليه السلام (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه)
نعم وكذلك سماه النبي عليه السلام وترجمت لهم ذلك الحديث الشريف
ثم عن لي بعد ذلك أن أضع عجالة في بيان معنى كون الاسلام دين
الفطرة وتوجيه ذلك ولما دعيت الى هذا المؤتمر الجليل وجدتها
أحسن فرصة أشرف فيها بعرض ما عن لي بين أيدي أعضائه الامثال
لعل أسعد بقبولهم لما جلبته من بضاعتي المزجاة فأقول والله المستعان

الحديث

روى البخارى عن أبي هريرة أنه قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم (ما من مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو
ينصرانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى
تكونوا تجدونها) وقد اختلف المفسرون كعادتهم في المراد
من كلمة الفطرة فذهبوا طرائق قدداً

والذي يفهم من تعقيب ذلك في الحديث بقوله عليه السلام
فأبواه يهودانه أو ينصرانه الخ أن التهويد أو التنصير صفة تطرأ
على الانسان بكسب أبويه كالجدع الذي يصيب الشاة بعد ان تولد
على الفطرة سليمة لا عيب فيها

واعتبر ذلك بما نص عليه الشرع الاسلامي من عدم

تكليف القاصرين والآن يؤخذوا بما فعل ابائهم من التهود والتنصير
حتى يبلغوا راشدين راضين بدين آباءهم فيؤخذون اذ ذاك وقد
أقيت علي كواهلهم أعباء التكليف بما كسبت أيديهم
فترى الاسلام قد اعتبر القاصرين ولو أبناء النصارى أو اليهود
أو المجوس مسلمين ناجين حتى يكفوا. فالدين الفطري لكل مولود
هو الاسلام الا فيما يتعلق ببعض المعاملات الدنيوية كالارث ونحوه
فان الاطفال في ذلك تابعون لآبائهم

(وبعد) فانريد أن نذكر لك وجه كون الاسلام دين الفطرة
وأنه لو ترك الطفل وشأنه حتى كبر غير مهود ولا منصر لما اختار
بفطرته الا الاسلام فانه لا يمكن توضيح ذلك الا بالبحث في بعض
أصول الاسلام وقواعده والاعراض التي يرمى اليها الشارع في
تكاليفه فنقول

٢

الفطرة والتوحيد

كل انسان يشعر فطرة بأن ثمة واحداً قد نظم هذا العالم
ودبره لا يمكن أن يشابه الممكنات في شيء من صفاتها فليس بجسم
ولا عرض ولا محدود ولا متحيز لا يستطيع ادراكه الا بالآثار والشاخصة
غير قابل للحلول ولا للصعود ولا للنزول

الى ذلك اهتدى الاعرابي بفطرته فقال « البعرة تدل على البعير
وأثر الاقدام يدل على المسير . فسماء ذات أبراج . وأرض ذات جفاج

كيف لا تدلان على اللطيف الخبير « فجاء الاسلام مصداقاً لما اقتضته
الفطرة السليمة ولم يزد في الاستدلال شيئاً سوى أن أيقظ العقول ونهها
الى النظر في آثار الله تعالى فما عليك الا أن تتصفح القرآن الكريم
فتجد ذلك في أكثر من آية من آياته

نعم ربما قال انسان انه لو كان التوحيد فطرياً لما اختلف الناس
في عقائدهم وتباينوا في تصوير آلهتهم فذهبوا كما نعلم مذاهب شتى حتى
لا تكاد تجد تشابهاً بين آلهتهم . فسندقق لك بعد أن هذا مبين لمقتضى
الفطرة اذ منشأ ذلك ان الانسان ميال الى الاعتماد على ما يقع تحت حواسه
من الكائنات والى انكار ما ليس له في ذهنه صورة ولا حدود محصورة
(فمن ذلك ما قصه الله في شأن معاندي أهل الكتاب حيث
قال (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا
موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم
اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات)

ومن البديهي أن الشيء لا يصح انكاره الا اذا ثبت بالبرهان
القطعي عدم وجوده أما مجرد عجز المدارك عن تصوره وتجديده
والاحاطة به فمن العجب أن يتخذوه ذوقاً عقل برهاناً ينفي به وجود
الشيء وأعجب من ذلك أن ترى أكثر المتحكيكين بأهل العلم في هذا
العصر على هذا المذهب العجيب الذي هو آية الجهل ونهاية الحق
جاء الاسلام في وصف الحق واثباته بما يطابق مقتضى الفطرة
والعقل تمام المطابقة أفلا تدبرت قوله تعالى (الله لا اله الا هو الحي

القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له مافي السموات ومافي الارض من
ذا الذي يشفع عنده الا بأذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون
بشيء من علمه الا بما شاء وسع كرسيه السموات والارض ولا يؤده
حفظهما وهو العلي العظيم

لقد جمعتني المصادفات برجل مسلم من الانجليز لم يرج من اسلامه
شيئا من حطام الدنيا ولا أن ينال جاها يتخذه عدة لنيل شيء من الرغائب
السياسية فقال لي ان في القرآن الكريم آية لا أمل من تكرارها
ولا من ترديد النظر فيها جاءت في وصف الله تعالى بما ليس في استطاعة
أحد من أئمة الاديان الاخرى على ذكائهم وسعة اطلاعهم أن
يأتوا به ثم تلا بالانجليزية تلك الآية الكريمة آية الكرسي . فبأيك
أيها العربي هل مرت تلك الآية مرة على سمعك الا وأنت لاه
عنها تلعب أو حركت بها لسانك الا وأنت بها تعجل

هذا وتتميا لموضوع التوحيد أريد أن أتيك هنا بكلمات عثرت
عليها^(١) للورد ما كولي الكاتب الانكليزي الشهير اذ قال ما ترجمته :

« ان علماء المنطق قد بنوا عقائدهم وقضايهم على البرهان
العقلي فأمكنهم أن يسلموا القول بأن من الاشياء ما لا يمكن للعقل
أن يحيط به بخلاف السواد الاعظم من العامة فان معظم أفكارهم
وقضايهم اما خيالية أو وهمية أو شعرية فلا يكادون يننون شيئا من
مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم ومن هنا نشأت كما

1 see the essay on milton

يظهر الاديان الوثنية في كل أمة وفي كل جيل في كل زمن فاختلقت
لذلك صور الآلهة باختلاف مآصوره خيال معتقديها
ولطالما أذن فينا التاريخ ببيان ما أدخل اليهود قديما في دينهم من
البدع مستمسكين بما أملاه عليهم خيالهم الفاسد من ضرورة ان
يكون لهم اله محسوس ملموس يقصدونه بالعبادة والاجلال . ويمكن
القول بأن معظم الاسباب التي ذكرها «جيبون» وجعلها أساس انتشار
الدين النصراني لم تؤثر ذلك الاثر ولم تنشر ذلك الدين في أطراف
الارض الا لانها كانت مشفوعة بكثير من تلك القضايا الوهمية التي
كان لها ا كبر سلطان على نفوس السذج من العامة فان الهام لم يخلق وكائنا
لا تدركه الابصار ولا تحيط به الظنون لم يقل به الا الفلاسفة العالمون اما
الاخلاق ضعاف العقول من الناس فلهم ضاقت دائرة افكارهم وانقطعت
سلسلة ادراكهم عن ان تصل الى القول باله ليس له صورة محدودة في
نفوسهم فكانوا يتأفقون ويهزءون ويضحكون من أولئك الفلاسفة
رامينهم بالبله او قصور الذهن

طاشت النفوس في الازمنة القديمة وضلت الصراط السوى
وقست القلوب وانتهكت الحرمات فجاء المسيح عليه السلام واخذ يعلم
الناس ويدعوهم الى ما جاء به من الهدى فمنهم من آمن ومنهم من كفر
ولم يسلم تابعو المسيح من النصراني ان يصيبهم في ايمانهم مثل
ما اصاب اليونان والفرس وغيرهم من قبلهم فتمثل الاله لهم في صورة
آدمي مشي بينهم وشاركهم في أغراضهم وما يعتريهم من الانحلال

والاضمحلال كما كان يبكى على القبور وينام في الحظائر ثم صلب حتى
سال دمه على أعواد الصليب فظهروا بذلك للعالم في لباس جديد من
الوثنية ثم كان لهم من القسيسين والرهبان بعد ذلك لقيف من الآلهة
على مثال ما كان لليونان فكان القديس جورج لديهم اله الحرب كما كان
المريح عند اليونان وكذلك اتخذوا العذراء سيسيليا *cecilia* وغيرها
آلهة الجمال وفنون الادب كما كانت الزهرة وسبع كواكب أخرى
(the Muses) آلهات لدى اليونان وهلم جرا

ولطالما أخذ المفكرون من رؤساء الدين يربلون ما لصق بعقول
العامّة من تلك الصور الوهمية ولكنهم لم يفلحوا
تجد العامة الى هذا اليوم يتعشقون سماع كثير مما لا معنى له
من الخزعبلات ويتهافتون على تلقف سير بعض من لا قيمة لهم في سوق
الفضائل والمكرّمات أكثر مما يميلون الى تعرف وتفهم شيء من
قواعد الدين الاساسية « انتهى ببعض تصرف

هذا ماقاله اللورد ما كولي في شأن الدين الذي يعتنقه ويذعن له
وفي الامم التي شاركتة في الاخذ به وبيان أحوالهم فتذكرت هنا
والحديث شجون ما أصاب عقول المسلمين من المس الذي أصاب عامة
غيرهم . أفرايت الذين يذهبون الى الاضرحة فيعفرون وجوههم
بترابها ويتضرعون الى من فيها متوسلين بهم الى من هو أقرب اليهم
وأسمع لدعائهم وأقدر علي اصابتهم وأحق بعبادتهم وخشوعهم (قل
أفتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لانفسهم نفعاً ولا ضرراً . أله مع الله

أمر أن لا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) والخاصة ان السبيل التي جاء بها الشرع الاسلامي في الايمان بالله وتقديسه عن الحلول ومشابهة الغير وتوحيده بالعبادة دون كائن غيره هي السبيل التي يصل اليها الانسان بفطرته متى خلى وشأنه غير مضلل ببعض الاباطيل ولا مدفوع الى غير تلك السبيل
بسم الله الرحمن الرحيم (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم

يولد ولم يكن له كفوا أحد)

٣

ببر النبوته وتقديرها والغرض الفطري منها

ظهر النبي صلى الله عليه وسلم في أمة أمية دينها الوثنية ومن أخلاقها الكبر والغطرسة والعناد ووسائل ارتزاقها السلب والنهب فلما جاءهم الرسول بالحق الواضح اختلفوا ففهم من آمن به ومنهم من صد عنه كان معاندو اليهود والمشركين يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام أن يثبت دعواه النبوة بشيء من المعجزات الخارقة للعادة فكان صلى الله عليه وسلم يرجع بهم الى الجواب عما هو من حدود وظيفة الرسل اذ لا علاقة عقلية بين دعوى الرسالة والقدره على شق الارض ونحوه من المعجزات ولقد نقل عن ابن رشد ان الآيات الاقتراحية لا تدل دلالة قطعية على دعوى الرسالة اذ جاءت منفردة لانها ليست من أفعال الصفة التي سمي بها النبي نبياً أو الرسول رسولا ولذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يرجع بالقوم الى ما هو من حدوده

والى تدبر ماجاء به القرآن الكريم من الهداية فان دلالة القرآن
على هذه الصفة كدلالة الابرء على الطب لمن يدعيه قال تعالى (وقالوا
لولا نزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير
مبين أو لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك
لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون) ولطالما تنصل النبي صلى الله عليه وسلم
من اجابة مطالب العرب وأرشدهم الى ما قصد من شريعته وهو
اصلاح شأن العالم الانسانى والقضاء على ما كان سائداً فيهم من
الضلال المبين قال تعالى (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم
الغيب ولا أقول لكم انى ملك ان اتبع الا ما يوحى الى قل هل
يستوى الاعمى والبصير أفلا تتفكرون) وجاء فى سورة الاسراء
(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً أو تكون لك
جنة من نخيل وعب فتفجر الانهار خلالها تفيضاً أو تسقط السماء كما
زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من
زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً
نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً)

كم حذر النبي صلى الله عليه وسلم الناس من اللجاج فى طلب المعجزات
وبين لهم وخامة عواقبها وسوء نتائجها فمن ذلك قوله تعالى (وما رسل
بالآيات الا تخويفاً) وقال (قل انى على بينة من ربي وكذبتم به ما عندى
ما تستعجلون به ان الحكم الا لله يقض الحق وهو خير الفاصلين قل لو ان
عندى ما تستعجلون به لقضى الامر بينى وبينكم والله أعلم بالظالمين)

لم يكن طلب المعجزات من النبي عليه السلام ناشئاً عن تروّ من
العرب وصدق رأى وسلامة فطرة واصرار منهم على أن لا يقبلوا
شيئاً الا يبرهان ولكنهم كانوا يقترحونها اما عبثاً أو عناداً أو عملاً
بما تلقوه عن الجاهلية الاولى وما أملت عليهم نفوسهم التي أخذ
الضلال بتلايبيها فكان النبي عليه السلام يدعوهم الى العمل بمقتضيات
الفطرة الانسانية وبطلب ما لا يخالف سنة الله التي لن يبدلها
تبديلاً قال تعالى (وأقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن
بها قل انما الآيات عند الله وما يشعركم انها اذا جاءت لا يؤمنون
ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم
يعمّون . ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل
شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون)
أراد الله الحكيم أن يبين للناس ان تلك الآيات التي يطلبونها
لا تصلح مفحماً لهم وحجة قائمة تلزمهم اتباع شرعه اذ مثلها في ذلك
مثل من ادعى ان $2 + 2 = 5$ وبرهن على ذلك بآرائه مريضاً من داء
عضال فان المدعى بها أتى من الامور العجيبة وخوارق العادات ما لا يستطيع
أن يحمل أحداً على اعتقاد دعواه التي أتى بها ومن هنا كان الاقدمون
من اليهود وغيرهم يؤولون ما يأتي به أنبياءهم من المعجزات فقائل انها
سحر وقائل انها من أعمال الجن المسخرة لهم حتى اذا ضاقت عليهم
الاسباب لجؤوا الى التماس أسباب أخرى غير معقولة كاعتذارهم
بمعجز افهامهم عن ادراك معنى تلك الآيات مع اصرارهم على الجحود

والانكار كما قال تعالى (وقالوا قلوبنا غلف) وقال تعالى (وقالوا قلوبنا
في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب)
فكانوا يقفون بعد ان تأتيهم الآيات موقف المحارب لله العايب بآياته
فيصيبهم ما يصيبهم من العذاب والانتقام لما حاربوا الله ورسوله وسخروا
منهم وتلاعبوا بما جاءه من الآيات

طالما كذب المشركون النبي صلى الله عليه وسلم كما فعل أسلافهم
وناله من عنائهم ولجاجهم في طلب المعجزات ومغالاتهم في العناد
ما كان يحزنه ويكاد يطلق لسانه ان يستعجل بهم السوء ولو كانت
الحوارق في يد النبي صلى الله عليه وسلم وكانت من البراهين التي
تصح لالزام الخصم واخامه لما قعد بالنبي عليه السلام أمر عن الاتيان
بها ولكنها كلمات الله التي لا مبدل لها وسنته التي لا تتغير (وان كان
كبر عليك اعراضهم فان استطعت ان تبغى نفقا في الارض أو سلما في
السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين)
والخلاصة اننا نرى القرآن في غير موضع يؤذن في أرباب العقول
بالتدبر وان لا يشطوا في مطالبهم ولا يعتسفوا في اقتراحاتهم بل أوجب
عليهم أن يسلكوا الجادة الموصلة الى ما يريدون من الغايات. ومن اليبين
أن القرآن هو المعجزة الخالدة الابدية التي جاء بها ذلك النبي الامي عليه
الصلاة والسلام حجة بالغة بين يديه ونورا مبينا يهدي به الله من اتبع
رضوان سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ولذلك نرى
القوم كلما شرأبت نفوسهم الى نزول احدي المعجزات أمرهم الله

بتدبر آيات القرآن الكريم . فمن ذلك قوله تعالى (وقالوا لولا نزل
عليه آية من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أو لم يكفهم
أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان في ذلك لرحمة وذكري لقوم يؤمنون)
نزل القرآن الكريم ليؤدي ما قصد منه حسب الفطرة البشرية
والسنة الالهية من الهداية من الضلالة والشفاء من الجهالة وما زال القرآن
اماماً يتبع وفيصلاً يحكم في النوازل حتى ساد الجهل وأخذ من المسلمين
مأخذهم فاستعملوا آيات القرآن في غير ما وضعت له فاتخذوها للتطب
والفتك بالاعداء وكشف عالم الغيب وقضاء الحاجات وحل الطلسمات
وتسخير الجن وتوسيع الرزق وليتهم وقفوا عند ذلك الحد بل تراهم
تطرفوا واجترأوا على القرآن ومنزله فأولوا القرآن طبقاً لاهوائهم
وأخرجوا كثيراً من آياته عن معانيها التي تقتضيها لغته وأسلوبه
وسياقه أماراتهم كيف يفهمون قوله تعالى (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك
اليوم حديد) وقوله (شفاء لما في الصدور) وقوله (لهم ما يشاؤون عند
ربهم) وقوله (حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين
حمئة ووجد عندها قوما) وقوله (ثم استوى الى السماء وهي دخان
فقال لها وللارض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) وقوله
(ألم نجعل الارض مهاداً والجبال أوتاداً) الى نحو ذلك من الآيات
وان شئت أن تعرف ما أتى به بعض المفسرين في تفسير هذه الآيات
وأمثالها من الافك المبين والجهل الفاضح فارجع الى ما كتبوا . ولنضرب
لك مثلاً شيئاً مما كتبوه فنقول :

(١) جاء في الجزء الثاني عشر من تفسير الطبري عند الكلام على قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضى الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين) حديث موضوع في وصف سفينة نوح حيث قال عن ابن جريج انه قال كانت السفينة أعلاها للطير ووسطها للناس وفي أسفلها السباع وكان طولها في الجو ثلاثين ذراعا ودفعت من عين وردة يوم الجمعة لعشر ليال مضين من رجب وأرست على الجودي يوم عاشوراء ومرت بالبيت فطافت به سبعا وقد رفعه الله من الغرق ثم جاءت اليمن ثم رجعت اه

(٢) وجاء في كثير من التفاسير في تأويل قوله تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) — في سورة الرعد — ان الضمير في «له» عائداً الى من ذكر اسم الله وان المعقبات الملائكة تتعقب على العبد وذلك ان ملائكة الليل اذا صعدت أعقبها ملائكة النهار فاذا انقضى النهار صعدت ملائكة نهاره ثم أعقبها ملائكة الليل وروا في ذلك حديثاً عن كنانة العدوي قال دخل عثمان بن عفان على رسول الله فقال أخبرني عن العبد كم معه من ملك قال ملك على يمينك على حسناتك وهو أمين على الذي على الشمال وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لله رفعتك واذ تجبرت على الله قصمك وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك الا الصلاة على محمد عليه الصلاة والسلام وملك على فيك لا يدع الحية تدخل اليه . وملكان

علي يمينك فهو لاء عشرة أملاك على كل آدي ينزلون وملائكة النهار
فهو لاء عشرون ملكا على كل آدي وابليس بالنهار وولده بالليل اه
ولا يخفى ان هذا الحديث مكذوب علي حضرة النبي علي انه مع ذلك
سخيف العبارة ساقطها. وأغرب من ذلك حمل القرآن عليه وتأويله
به مع ان سياق الآية لا يكاد يحتمله بوجه من الوجود فان سياق الآية كان
في التكلم على علم الله واحاطته بجميع الكائنات وعلى عظمته وتعاليه المنتهي
الذي يغلب معه كل مغالب ولا يقي الانسان دونه أي حافظ اذ قال
(عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال سواء منكم من أسر القول ومن
جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار له معقبات من بين يديه
ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) فالمستخفي بالليل والسارب بالنهار
المتخذان لهما حرسا وجلاوزة سواء عند الله فلا الاستخفاء بحاجب
المستخفي عن الله ولا الحرس يدفع عن الانسان ما يقضى به الله على
عباده. ثم بينت الآية ان سنة الله في خلقه ربط الاسباب بمسبباتها
نخفاء الاسباب أو كتمانها لا يحول دون تحقق نتائجها فان الله الذي جعل
ذلك الرباط رباط السببية مطاع على خفايا الامور محيط بما تجننه الضمائر
فلا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بانفسهم فاذا تحققت اسباب أي قضاء
وأراد الله تعالى تحقيق ذلك فلا مرد له وما لهم من دونه من وال فلا
ينفع الانسان اذذاك حرس كثيف يتعاقب عليه دائما ليقه شر الحوادث
هذا ما يفهم من الآية وسياقها فمجبيا لا وائتك المفسرين أرادوا أن
يؤولوها ذلك التأويل الشاذ فلما لم يساعدهم على ذلك نظم الآية قالوا ان

الضمير في قوله تعالى « له معقبات » يعود على من ذكر اسم الله تعالى وهذا لأثر له أصلا في الآية هذا فضلا عما عملوه من تفكيك نظام الآية اذ قطعوا الحال من صاحبها وفرقوا بين الاجزاء التي تتألف منها (٣) ومن ذلك ما قاله بعضهم في تأويل قوله تعالى (تنزل الملائكة والروح فيها) بسورة القدر — حيث فسر الروح بأنه ملك لو التقم السموات السبع والارضين السبع كانت له لقمة واحدة أو هو ملك رأسه تحت العرش ورجلاه في آخر الارض السابعة وله ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا وفي كل وجه ألف فم.... الي آخر السلسلة المعروفة فانظر الي هذه الخزعبلات التي يحملون عليها كتاب الله تعالى

(٤) ومن ذلك أيضا ما أتى به كثير من المفسرين في تأويل قوله تعالى (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) اختلف أهل التأويل في ذلك فقال بعضهم يمحو الله ما يشاء من أمور عبادته فيغيره الا الشقاء والسعادة فانهما لا يغيران وزاد بعضهم الحياة والموت ثم انقسموا فقال بعضهم ان ذلك في ليالي القدر . وقال بعضهم انه في ليلة النصف من شعبان . وقال آخرون ان ذلك في كل ليلة . ففي تفسير ابن جرير عن أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل يفتح الذكر في الساعة الاولى الذي لم يره أحد غيره يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء وقال أيضا ان الله يفتح الذكر في ثلاث ساعات يبقين من الليل في الساعة الاولى منهن ينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحد غيره فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء واذا شئت ان تستقصى

ما قالوه في أمثال هذه الموضوعات فعليك بكتبتهم
ولعلك تتطلع نفسك الى تفهم معنى المحو والاثبات هنا فنقول
قبل أن نحقق لك معناهما نذكر لك الآية بتمامها ليتجلى لك معناها.
قال تعالى (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية
وما كان لرسول أن يأتي بآية الا بأذن الله لكل أجل كتاب يحجو
الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) انقسم أهل الكتاب على النبي
عليه الصلاة والسلام فمنهم أحزاب كانوا يفرحون بما أنزل عليه من
الاحكام كما كان من الاحزاب من ينكر بعضها ويستقبح ما كان يفعله
المصطفى صلى الله عليه وسلم من التزوج والأكل والشرب ونحوها من
أعمال الدنيا (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق)
وكذلك كانوا كلما سألوا المصطفى صلى الله عليه وسلم شيئا من الآيات
الخارقة للعادة كإغاضة المياه ونقل الجبال وأحياء الموتى لا يجيبهم الى شيء
من مطالبهم واقترحاتهم كما قدمنا فكانوا يستضعفونه وينزلون من
شأنه ويعتبرونه عاجزا لا ينبغي له أن يدعى النبوة فرد الله على أولئك
القوم وبين لهم أن تلك الاشياء لا تنافي الرسالة في شيء فقال (ولقد
أرسلنا رسلا من قبلك كآدم وإبراهيم وموسى وداود وجعلنا لهم
أزواجا وذرية) كما بين ان التصرف في الكون والياتان بخوارق العادات
ليس الا لله تعالى فقال وما كان لرسول أن يأتي بآية الا بأذن الله
الذي هو خالق كل شيء فهو الذي يحجو ما يشاء محوه ويثبت ما يشاء
اثباته طبقا لما سبق في علمه القديم كما يدل عليه قوله تعالى وعنده أم

الكتاب اذ معنى أم الكتاب أصله وأصله هو العلم القديم الذي لا تتعلق قدرة ولا ارادة بشيء الا طبقاً له . وبالجملة انه لم يقصد من قوله تعالى (يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) الا مجرد تأكيد ما استفيد من قوله قبل ذلك وما كان لرسول أن يأتي بآية الا بأذن الله . هذا هو معنى الآية الكريمة فاضرب بغيره عرض الحائط ولا تبال ولا تحذر مما يعتقد بعض الناس مستدلين بهذه الآية من ان الله تعالى قد يغير ما سبق في علمه الا الشقاء والسعادة فان هذا يفضى الى القول بأن علم الله القديم ينقلب جهلاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . فالحذر الحذر من قراءة الدعاء المشهور المعتاد قراءته في ليلة النصف من شهر شعبان اذ ورد فيه « اللهم ان كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيماً أو محروماً أو مطروداً أو مقترأً عليّ في الرزق فاح اللهم بفضلك شقاً وني واحرماني الخ » فان معنى ذلك ان الداعي يسأل الله أن يغير ما سبق علمه أزلاً الى ما هو من مشتهيات نفس الداعي وان انقلب علم الله بذلك جهلاً عاش النبي صلى الله عليه وسلم ما عاش ثم مضى السلف الصالح من بعده فما سمع أن أحداً منهم فهم من القرآن الا ما يدل عليه من حيث هو كتاب عربي مبين ثم خلف من بعدهم خلف افتاتوا على النبي وصالح اتباعه وبرزوا للعالم فيما شاؤوا من القحة والدعارة مدعين أنهم أعلم بما في غضون كتاب الله ممن أنزل عليه ذلك الكتاب فتجلوا للقرآن أعداء في ثياب أصدقاء يلزمونه بما ينكره ويحملونه ما لا يحتمله ويفسرونه طبقاً لاهوائهم ويكلفونه من التأويل ما يكاد يخرجهم عن الغرض الذي أنزل

لاجله والله يقول (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا نقوم يعلمون بشيراً
ونذيراً) ويقول (انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك
الله) ويقول (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً
قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات
أن لهم أجراً حسناً ما كثرين فيه أبدأ) وكذلك يقول قد جاءكم من الله
نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم
من الظلمات الى النور باذنه) ولقد أتى القرآن بما يضيق المقام عند استقصائه من
أمثال تلك الآيات التي تنطق ببيان الغرض الذي جاء له القرآن الكريم
غفلاً أكثر المفسرين أو جهلوا الغرض الذي أنزل له هذا الكتاب
الكريم كما كالت أفهامهم عن ادراك أمثال تلك الآيات الناطقة بما يرمي
اليه فقالوا ان القرآن لم يترك فناً من الفنون العلمية الا أتى بشيء من
مسائله فجعلوه كتاب جغرافيا وتاريخ وطبيعة ورياضة وهلم جرا وادعوا
انه أتى من كل فن بطرف فحملوه من التأويل ما ينبوا عنه ثم ذيلوا آياته
بأشياء أملاها عليهم جهلهم ووسوست لهم بها شياطينهم فشووهه وألبسوه
غير لباسه وصبغوه صبغة أبرزت القرآن والدين وصالح المسلمين بما هم
براء منه فكانوا أضر عليهم من العدو المبين

لنرجع الى ما ذكره أولئك المفسرون في شرح ارم ذات العماد
وتمود الذين جابوا الصخرة بالواد وفوعون ذى الاوتاد والى ما قالوه
في أمر الزلازل والثور الحامل للارض ووصف يأجوج ومأجوج وما
سيقيمون من الحرب العوان حينما يرمون السماء بالنبال لمحاربة الحق

تعالى فيأمر الله السماء أن تمطر عليهم دما إلى آخر ما قالوا كما ألفتك إلى ما قالوه
في تعليل ما يشعر به الانسان من سخونة مياه الآبار في الشتاء وبرودتها في
الصيف اذا عللوا ذلك بأن ليالي الشتاء طويلة ولما كانت الشمس تغرب
فتدخل في جوف الارض كان تأثيرها في المياه التي في جوف الارض
أثناء الشتاء أكبر من تأثيرها في أثناء الصيف . هذا بعض ما أتى به
أولئك المفسرون ليتمموا به كلام الله تعالى فأضحكوا منهم الصبية والبله
فضلا عن العقلاء من الناس كما انهم حملوا غير المسلمين على الاستهزاء
بالدين والسخرية بالقرآن الحكيم فلقد رأيت للقرآن ترجمة بالانكليزية
يأتي واضعها بما سطر أولئك الجحمة المتعاملون ثم يعقب ذلك بما شاء من
الانتقاد والتشهير بدين ذلك كتابه وأولئك أمته فيالله من الصديق
الجاهل

كبر على كثير من الناس القول بان القرآن كتاب مبين يفهمه كل
من يعرف لسانه فجعلوا يحومون حول المعاني البعيدة ليحملوا عليها آيات
القرآن . ألم تر الى الذين ضلوا وأضلوا فجعلوا للقرآن تفسيرين أحدهما
باطني والآخر ظاهري وادعوا ان الرسول الذي أتى به لم يصل الى
ادراك ما فيه من المعاني الباطنية مع انه يقول ما معناه أنا أعلم بكتاب
الله تعالى ولو علمتُ بأعلم مني به لرحلت اليه أو كما قال
أرغني سمعك أقص عليه ان المتدبر للقرآن يرى ان النبي صلى الله
عليه وسلم مسائل في شيء مما لم يبعث لاجله الا صرف السائل عن
قصده وتلقاه بغير ما يترقب تنبها الى انه الاولي بالقصد والاليق بما هو

من حدود الرسائل ووظائفهم من الهداية والارشاد وتبليغ الشرائع. ينوه
الى ذلك قوله تعالى (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي)
وقوله (يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للناس والحج) وقوله
(يسألونك عن الساعة ايان مرساها فيم أنت من ذكرها الى ربك
منهاها انما أنت منذر من يخشاها) فيبين الله في هذه الآيات ان وظيفة
الرسل الانذار وتحذير العالم من تلك الساعة التي هي آتية لا ريب فيها
وليس وظيفتهم تعيين وقتها ومن ذلك أيضا قوله تعالى (ويسألونك
عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا
ولا أمتا) تدلك هذه الآية وما سبق على ما قلناه لك آتيا من ان النبي
صلى الله عليه وسلم في اجابته أمثال أولئك السائلين كان يعلمهم أن
لا يسألوا الا عما هو من خصيصات الرسالة ومتعلقاتها رجوعا بهم الى
السنة القطرية



هل أسس الاسلام على السيف ؟

هـج معظم الاوربيين وضعاف العقول من المسلمين بأن الاسلام
لم ينتشر ولم ترسخ قدمه في عالم الوجود الا لانه سعى والسيوف أمامه
تمهد له السبيل وتدلل بين يديه العظماء وتلجى المستضعفين الى اعتناقه
حقنا لدملهم وصيانة لاملاكهم وأسبابهم وقد ضربوا الامثال بما أقام
النبي صلى الله عليه وسلم من سراياه ومغازيه ثم بما عمل خلفاؤه من
بعده على انهم لو قرؤوا القران وشيئا من التاريخ وسيرة النبي صلى

الله عليه وسلم وعرفوا شيئاً من أخلاق العرب وعادتهم في ذلك الوقت
لما تطرق ذلك الخطأ الي عقولهم ولا استحوذت عليهم وساوس
صدورهم حتى يرموا النبي صلى الله عليه وسلم وصالح سلفه بما هم براء
منه . نعم انه لا يسعني أن أنكر أنه قد وجد من أمراء المسلمين من
شوهوا وجه الاسلام وذنسوه بما جنت أيديهم عليه ولكنني أريد
أن أتكلم هنا في الاسلام من حيث هو كما أريد أن آتي على نبيذ من
تاريخ أسباب غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وحرابه لترى انه صلى
الله عليه وسلم ما بدأ أحداً بعدوان في جميع ما أقامه من الحروب وما يتذكر
الأولو الألباب

لا حاجة لي أن أذكر هنا ما كان عليه في بدء الدعوة من الانفراد
والضعف وما أصابه من أهله وأقاربه من الأذى فان هذا مما لا يرتاب
فيه أحد

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق فجعل النبي ^{ببشارة} بدعوته
من يثق بتوقد فكره وتمكن الانصاف من قلبه فلم يسئل لنا ييدر سألته
الأسيف الهدي والحجة الدامغة فمن آمن به أبو بكر وعثمان والزبير
وعبد الرحمن بن عوف وأبو ذر الغفاري . ومن السابقين الي الاسلام
خالد بن العاص جاء النبي فقال له الي م تدعو يا محمد فقال (أدعوك الي
عبادة الله وحده لا شريك له وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة ما لا يسمع
ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع والاحسان الي والديك وأن لا تقتل ولدك
خشية الفقر وأن لا تقرب الفاحشة ما ظهر منها وما بطن وأن لا تقتل

نفسا حرم الله قتلها الابالحق وأن لا تقرب مال اليتيم الابالتى هى أحسن
حتى يبلغ أشده وان توفى الكيل والميزان بالقسط وان تعدل في قولك
ولو كان على ذوى قرباك وان توفى لمن عاهدت) فأسلم وهكذا دخل
هؤلاء الاشراف في الاسلام غير مهدين ولا ملجئين ولكن طائعين
منصفين مدركين فرق ما كانوا عليه من الضلال وما أتاهم به هذا الدين
الحنيف . ولم يدفعهم الى الدخول في الاسلام اذ ذاك لارغبة في جاه
ولا توقع ثروة ولا فقر مدقع فان أكثرهم كانوا أوسع ثروة وأعظم
جاها وأقوى عصبية وأنفذ كلمة من ذلك الفرد الذى أطاعوه وتبعوا
شرعه واحتملوا الاذى في تأييده (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيتنه
خاشعاً متصدعاً من خشية الله)

ثم جهر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة فسخرت منه قريش
وكانوا يضحكون منه في مجالسهم وهو مع ذلك لا يثنى عزمه ولا يرجع
عن تسفيه أحلامهم وتقييح آلهتهم فأضمروا له العدا والبغضاء ثم جاؤا
الى أبي طالب عمه وقالوا له ان لك شأننا وشرفنا ومنزلة منا وانا والله
لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا فاما أن
تكفه أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا فعظم على
أبي طالب فراق قومه ولم تطب نفسه بخذلان ابن أخيه فقال له يا ابن
أخي أبق على نفسك ولا تحملى من الامر مالا أطيقه فظن الرسول أن
عمه خاذله فقال والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري
على أن أترك هذا الامر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه ثم بكى

وولى وقد صادف النبي على أثر ذلك من أذى قريش ومناوأتهم واعتسافهم
ومؤامراتهم ما خلد في التاريخ . ومن ذلك ما رواه البخارى قال (بينما النبي
يصلى فى حجر الكعبة اذ أقبل عقبة بن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنق
رسول الله صلى الله عليه وسلم فخنقه خنقا شديداً فأقبل أبو بكر حتى
أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال أتقتلون رجلاً أن
يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم

ولقد عم الاذى جميع من أسلموا حتى لم يبق أحد الاصابه منه
حظ كبير . ذلك أبو بكر الذى كان فى الجاهلية سيداً شريفاً اشتد عليه
أذى قريش حتى أجمع رأيه على الهجرة الى الحبشة لولا أن عاقله ابن
الدغنة علي أن يعبد الله فى داره فيصلى فيها ماشاء ويقرأ ماشاء ولا يؤذى
قريشا بالاستعلاء به خشية أن تفتن نساؤهم وأبناؤهم فلما ابتنى أبو بكر
مسجداً بجوار داره يتعبد فيه أتى ابن الدغنة أبا بكر فقال قد علمت
الذى عاقدت الله عليه فاما أن تقتصر على ذلك واما أن ترجع الى ذمتى
فانى لأحب أن تسمع العرب انى أخفرت فى رجل عقدت له فقال أبو بكر
فانى أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله (كما فى البخارى بتصرف)
تفاقم الخطب وأحدثت الفتن بالمسلمين حتى عجزوا عن احتمالها فأشار
النبي صلى الله عليه وسلم عليهم بالهجرة الى بلاد الحبشة فهاجر منهم
عشرة رجال وخمس نسوة فلما أعيت قريشا الحيل عزموا على منابذة
بنى هاشم وبنى المطلب واخراجهم من مكة والتضييق عليهم حتى يسلموا
محمد صلى الله عليه وسلم للقتل وكتبوا بذلك صحيفة وضعوها فى

جوف الكعبة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم جميع المسلمين أن يهاجروا
للحبيشة فهاجر معظمهم

ولما رأى النبي صلى الله عليه وسلم من قريش ما رأى جعل يخرج في
الأسواق العربية ويعرض نفسه على القبائل ليحموه فكان منهم من يرده
رداً جميلاً ومنهم من يلتقي عليه قولاً ثقيلاً حتى إذا جاء رؤساء الأوس إلى
مكة ليحالفوا قريشاً على الخزرج جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
هل لكم في خير مما جئتم له أن تؤمنوا بالله وحده ولا تشركو به شيئاً ثم
تلا عليهم القرآن ولم يمض إلا قليلاً حتى آمن به بعضهم وصدقوه فيما جاء به ثم
أخذ عدد المسلمين من الأوس والخزرج يزداد قليلاً قليلاً فأثار ذلك من حنق
قريش وسخطهم حتى لقد جعلوا يغنون في أيديهم للنبي على ما هو في
كتب السنة الصحيحة. فلما علموا بما حالف الانصار عليه النبي صلى الله عليه
وسلم أجمعوا أمرهم على أن يقتلوه واتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة شاباً
جلداً ويجمعوا أمام داره فاذا خرج ضربوه ضربة رجل واحد فيترق دمهم
في القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على محاربة قريش كلهم فألهم الله النبي
بجميع ما دبر له أعداؤه فخرج هو وصاحبه أبو بكر إلى المدينة لينزل فيمن
عززوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه. هكذا كان مجمل بدء
الدعوة الإسلامية. واني هنا لواقف انه لا يكاد يوجد من المعارضين
من يستطيع التبجح فينكر شيئاً من ذلك أو يدعي ان سيفنا اعلم في خلال
تلك السنين فما على الا ان أسرد لك اسباب ما كان بعد ذلك من
الغزوات والسرايا مختاراً أشدها وأهمها في اظهار الدين فأقول :

أباح الله لرسوله محاربة من آذاه من كفار قريش وأخرجوه هو وأصحابه
من ديارهم فقال (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم
لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) وقال
(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب
المعتدين واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة
أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن
قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان
إلا على الظالمين) فلم يباح الله للنبي مقاتلة غير كفار قريش لما ناله
منهم فلما تملاً على المسلمين غيرهم من قبائل العرب أباح الله للنبي
أن يقاتل كل معتد عليه فقال (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم
كافة) وقال (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء)
فانظر إلى ما شرعه الله للمسلمين من القتال أجمده يخالف في شيء مما
يسمى في هذا الزمان بقتال المدافعة عن النفس . كلا . فلقد نهى الله
المسلمين عن الاعتداء ولم يباح لهم إلا مقاتلة الظالمين البادئين بمقاتلتهم
شرع الله قتال أهل مكة لما اعتدوا على النبي صلى الله عليه وسلم
وهموا بقتله وأخرجوه من دياره هو وأصحابه لاجل إضعاف شوكتهم
وفل غرارهم حتى لا يتمكنوا من العودة إلى محاولة قضاء ما ربه من النبي
فإنه كبر عليهم خروجه ووجوده فيمن حالقوه على النصر والتأييد فكانوا
يتحينون الفرص للإيقاع به والقضاء على دينه وشيعته فلوتر كوا بلا مناوشة

لاستفحل أمرهم ولضاق ذرع المسلمين عن مقاومتهم فكان من الحزم
وسداد الرأي أن يقعد النبي صلى الله عليه وسلم لهم كل مرصد ويضيق
عليهم السبل فكان يرسل سرايا ويخرج بنفسه في المغازي حتى لا تمر
عير لقريش الا صادرها وحرم المشركين مما فيها من الامتعة فكان
مرة يصيب منهم وتارة يخطئهم . فمن أكبر الغزوات التي انتصر فيها
المسلمون غزوة بدر الكبرى خرج النبي صلى الله عليه وسلم مترصدا
أعظم عير لقريش آتية من الشام جمع فيها غالب أموال قريش حتى
لم يبق بمكة قرشي ولا قرشية لها مثقال فصاعدا الا بعثت به في تلك العير
(١) فلما علم أبو سفيان بخروج الرسول في رجاله أرسل الى قريش
فنفروا سراعا لحماية تجارتهم وكانوا تسعمائة وخمسين رجلا فالتقي الجمعان
وكان ما كان من نصرة المسلمين على ضعفهم وقلة عددهم (ولقد نصركم
الله بيدروا أنتم أذلة)

(٢) كان يهود المدينة يضمرون البغضاء للمسلمين ويتشوفون أن
يصيبهم من أهل مكة ما لا قبل لهم به فلما كانت وقعة بدر الكبرى التي
أيد الله فيها نبيه عليه الصلاة والسلام والمسلمين نبذوا ما كانوا عاهدوا
عليه الرسول فبدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر فلقد
قال رؤسائهم للنبي صلى الله عليه وسلم وقد حذرهم عاقبة البغي « لا يغرنك
يا محمد ما لقيت من قومك فانهم لا يعلمون بالحرب ونحن لقيتنا لتعلمن
من تلاقى » فبنقضهم ميثاقهم وبداءتهم بالعداء سار اليهم النبي صلى الله
عليه وسلم وحاصرهم خمس عشرة ليلة فلما آانسوا من أنفسهم الضيف

واستولى على أوثنتهم الرعب سألوا الرسول أن يخلي سبيلهم فيخرجوا
من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الاموال فقبل منهم ذلك
(٣) عزم النبي صلى الله عليه وسلم على الذهاب الى مكة لتأدية نسك
العمرة فخرج في ألف وخمسمائة من أصحابه ومعهم الهدى ايذانا بأنه لم
يذهب الى مكة محاربا فساروا حتى نزلوا بأقصى الحديبية ثم ان الرسول
اختار عثمان بن عفان سفيرا الى قريش ليعلمهم مقصده فذهب عثمان وبلغ
ما حمل فقالت قريش (ان محمدا لا يدخلها عنوة أبدا) ثم انهم حبسوه
فشاع أن عثمان قتل فقال عليه السلام حينما بلغه ذلك الخبر (لا تبرح
حتى تناجزهم الحرب) وبايع أصحابه على القتال نخافت لذلك قريش
فأرسلت سهيل بن عمرو في طلب الصلح فوضعت الحرب أوزارها على
ماتراضوا عليه من الشروط التي منها وضع الحرب بين المسلمين وقريش
أربع سنين

(٤) ثم انصرف النبي والمسلمون قافلون الى المدينة في تلك السنة
وعادوا لقضاء عمرتهم في العام التالي ثم عمل النبي صلى الله عليه وسلم
بمقتضى شروط الصلح فلم يختر ذمة ولم ينقض عهدا حتى بدأت قريش
بالعدوان

ذلك أن قد دخل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قبيلة يقال لها
خزاعة كما دخل في عهد قريش قبيلة أخرى يقال لها بكر وكان بين
هاتين القبيلتين اضعان كثيرة وراث قديمة فاتفق أن رجلا من بكر
وقف يتغنى ذات يوم بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم على مسمع من رجل

خزاعي فقام هذا فضر به فأثار ذلك كامن احقاد بكر واستشاطوا غضباً
فاستعانوا بقريش على الفتك بقبيلة خزاعة فأمدتهم قریش بالعدة والرجال
ثم انقضوا على خزاعة على غرة منهم وقتلوا منهم فأرسلت خزاعة الى
النبي صلى الله عليه وسلم تخبره بما جرى من قریش وبكر حليفها
أما قریش فانها استيقظت فرأت انها قد نقضت بفعلها هذه
شرايط عقد الصلح الذي تم بينهم وبين المسلمين فندمت على هذه
الفارطة التي ارتكبتها بلا ترو ولا تبصر فأرسلت اذ ذاك ابا سفيان
زعيمها الى المدينة ليوثق عرى الصلح ويمد في أجله فخرج حتى جاء الى
النبي صلى الله عليه وسلم وعرض عليه ما جاء به الى المدينة فقال له عليه
الصلاة والسلام هل كان من حدث بعد. قال لا . فقال الرسول: فنحن
على مدتنا الاولى وصلاحنا السابق ولم يزد عن ذلك. ومن المعلوم ان قریشا
الآن قد اعتبرت محاربة حسبما تقتضيه شروط الصلح السابق وقد
شعر بما أضمره النبي صلى الله عليه وسلم لقریش فتوسل اليه ببعض
وجوه العرب وزعمائها فلم يفلح .

أما الرسول عليه الصلاة والسلام فانه أمر أصحابه أن يتأهبوا
للسفر وأخبر ابا بكر بما عزم عليه فقال له أبو بكر أو ليس بينك وبين
قریش عهد قال نعم ولكن غدروا ونقضوا ثم استنفر الاعراب الذين حول
المدينة وسار النبي صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف مقاتل الى مكة
حتى اذا وصل اليها أمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة ودخل
هو من اعلاها ونادى مناديه «الا من دخل داره واغلق بابها فهو آمن

ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن « نعم
انه أهدر دم جماعة وان تعلقوا باستار الكعبة لانه اعتبرهم كما يقال في
هذا العصر « مجرمين سياسيين »

واعلم انه لم يقاتل في هذا الفتح الا جيش خالد الوليد ولكن
بعد ان تعرضت له قريش ليصدود عن دخول مكة فقتل منهم أربعة
وعشرين رجلا وقتل من جيشه اثنان فكان دخوله مكة عنوة

ثم أخذ النبي عليه الصلاة والسلام يظهر الكعبة مما كان عليها من
الاوئان والادناس ثم خطب في الناس فيين كثيرا من الاحكام ثم ختم
خطبته بقوله تعالى (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير)
ومن آدابه صلى الله عليه وسلم وشيمه الكريمة ماورد في كتب السنة
الصحيحة من أن رجلا جاء عقب فتح مكة ليبايع النبي عليه الصلاة
والسلام فجاء وهو يرتعد خوفا فقال له الرسول « هون عليك فاني لست
بملك انما انا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد »

(٥) على أثر هذا الفتح المبين وتدمير عصاة الوثنيين أخذ
الناس يدخلون في دين الله أفواجا الا بعض قبائل أدركتها حمية
الجاهلية الاولى فلقد اجتمعت أشرف هوازن وثقيف وقالوا قد فرغ
محمد (صلى الله عليه وسلم) من قتال قومه ولا ناهية له عنا فلنغزوه قبل ان
يغزونا أما النبي صلى الله عليه وسلم فانه لما بلغه خبر استعدادهم لخر به أجمع
رأيه على المسير اليهم فخرج في اثني عشر ألفا حتى وصل الى العدو فالتحم

الجمعان وذلك يوم حنين أعجب المسلمين فيه كثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً وضاعت عليهم الارض بما رحبت حتى ولوا مدبرين لولا أن الله أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأيدهم بروح منه فلم ينته القتال حتى جعل الله كلمة الذين كفروا السفلى وكلمته هي العليا والله عزيز حكيم

هذه هي جلى الغزوات وأقواها في تأييد الاسلام واعلاء كلمته وتقوية سلطانه . فهل رأيت في جميع ما قصصته عليك وانه لحق أن النبي بدأ أحداً بعدوان . كيف وهذا كتاب الله يقول (لا عدوان الا على الظالمين)

ارجع الي كتب السير ووجد نفسك من شوائب التحيز فهل تجدن مغزاة ابرة للشك فيما قصصته عليك ؟ كلا

وخالصة القول ان البصير بالتاريخ يشهد معنا ان المصطفى عليه

الصلوة والسلام لم يسئل في حياته سيفاً لا رغام أحد من الناس على الدخول في دينه ولكن الهدى هدى الله يهدي به من يشاء

ما كان للنبي والمؤمنين أن يدعوا الى الله ودينه سالكين طرق العسف والارهاب وهذا كتاب الله يأمرهم بالحسنى في الدعوة كما قال (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) وقال تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن)

انظر الى ابداع كتاب الله في الرد على أهل الكتاب القائلين بأبوة الله للمسيح مع اشتماله على أحسن آداب المحاجة حيث يقول (ما كان لبشر

أن يؤتية الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون)

٥

وجه كون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم

عامة لجميع المكلفين

اعتاد الناس أن يقيسوا أحكام الله السماوية بقوانين البشر الوضعية فتراهم يتشددون بأن الأحكام يجب أن تكون مناسبة للزمان مختلفة باختلاف أهلها فيراعى في القوانين والشرائع الأماكن وطبقات العالم ودرجات ارتقائها في التحضر والفضل والتهديب ونحوها من الصفات التي تتفاضل فيها الأمم وتتفاوت طبقاتها باعتبارها تم كأنك بهم وقد طفرت عقولهم فحكموا بأن شرائع الإسلام وسننه جاء بها نبي عربي لم يعرف من أحوال الأمم الأخرى الا قليلاً جداً كما أنه لم يعلم ما سيتوالى بعده من الأمم المختلفة والأحوال المتباينة والعصور التي تكاد تكون متباينة في مقتضياتها ومطالبها وأحكامها

فكأنى بأمثال أولئك القوم قد أقاموا على أنفسهم الحججة بأنهم لا يفقهون ما يتلى عليهم من كتاب الله تعالى. يسمعون القرآن وانما مثله فيهم كمثل الذي ينطق بما لا يسمع الادعاء ونداء و يرون آياته بأعينهم وانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور
فما بسطت لك هنا من أمراً أولئك القوم أريدان آتيك هنا بوجه
كون الدين الإسلامي دين الفطرة البشرية التي فطر الناس عليها في كل

زمان ومكان صالح لكل أمة وكل جيل مصلح لكل من استمسك بسببه
المتين وعمل بكتابه المبين

اعلم ان دين الله في كل الامم واحد لا يختلف أصوله باختلاف الامم
وأحوالها وأزمانها وأمكنها وانما الذي يختلف باختلاف ذلك هي الاحكام
الفرعية يشير الى ذلك قوله تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة
سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا
بعضاً أرباباً من دون الله) وقوله تعالى (انا أوحينا اليك كما أوحينا الى
نوح والنبيين من بعده) الآية

جاء الرسول عليه الصلاة والسلام لتقرير الحق والاعتراف به
وتذكير الناس أن يتمسكوا به فما كان له أن يبطل حقاً أو ينكر صالحاً
أو يحدد نبياً أو يستقبح حسناً ولكنه جاء مؤذناً فينا بأنه قد آمن بما
أنزل الله من كتاب وانه آمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله غير مفرق بين
أحد من رسله كما أخبرنا عليه الصلاة والسلام بأن الله أوحى اليه ان اتبع ملة
ابراهيم حنيفاً وبأن من يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر
فقد ضل ضلالاً بعيداً فلم يأت النبي صلى الله عليه وسلم بيدع من الشرائع
ولكن بما قرره الله من الحق وأوحى به الى أنبيائه من قبل كما قال
عز من قائل (وأزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من
الكتاب ومهيمناً عليه) على اننا نعلم ما تقرر في الاسلام من ان شرع
من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ . فترى من جميع ما تقدم ان الاسلام لم
يخالف مقتضى الفطرة السليمة في اعتبار ما سبق من الشرائع والاخذ

بما تقرر من النواميس العادلة سواء ورد بها دين ابراهيم أو دين عيسى بن
مريم أو غيرهما . نعم ان الاسلام نسخ بعض ما فرض الله على الماضين من
الكلف الشاقة التي جلبها عليهم عنادهم وظلمهم كما قال تعالى (فبظلم من
الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله
كثيراً وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل) فانهم
لم يزالوا كذلك حتى جاء المصطفى عليه الصلاة والسلام حريصاً على المؤمنين
رءوفاً بهم رحماً لهم فأباح الطيبات من الرزق ولم يكلف نفساً الا وسعها
فكان دينه بذلك أكثر الاديان ملاءمة للطباع والعادات والقوى
البشرية على اختلافها ولذا كان عليه السلام خاتم النبيين

ربما قيل كيف ذلك مع أن أكثر الاحكام النظامية والنواميس
التعاملية قد وضعها بعد النبي الفقهاء والخلفاء والامراء فلم يحط الاسلام
في بدء نشأته بكل ما يلزم البشر من القوانين والاحكام فنقول ان جميع
ما وضعه الفقهاء والخلفاء والامراء من الاحكام إنما بنوه على ما أباح لهم
الشرع الشريف من الاجتهاد والقياس كما قدروه واعتبروه بالاحكام
العامّة التي قررها لهم الشرع على ما سنأتى على تفصيله قريباً فكل ما جاء
مبيناً على قواعد الدين فهو دين سواء نص عليه الشارع نفسه أو استنبطه
أهل الفكر والنظر الصحيح وهذا هو وجه كون الدين الاسلامي دين
الابد وختام الاديان . ولنأت لك الآن بشيء من قواعد الاسلام لترى
منها وجه ما قلناه لك آنفاً فتدبره فان للدين كما ستري قواعد أصلية
ثابتة تقدر بها الاحكام حسبما تقتضيه الاحوال المختلفة في الازمان المختلفة

بين الامم المختلفة

(١) الاصل الاول الاجتهاد وأعني به أن تستنبط الاحكام من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة حسبما تصل اليه الافهام السليمة فكل من يعرف لغة القرآن لا ينبغي له بحال ما أن يقلد غيره تقليداً متى قدر على فهمه وفهم الكتب الصحاح في السنة فلم ينسد ولن ينسد باب الاجتهاد برغم أنف من أرادوا أن يحجروا على العقول البشرية وقيموا عليها أوصياء من الاولين حتى تسير كما ساروا وتقول بما قالوا فان السلف الصالح رضى الله عنه ما كان مقلداً ولكن تصدى لكتاب الله فعمل بما وصل اليه ادراكه وبلغه جهده ولو كان بعض ذلك خطأ في الواقع فان الله لم يحرم من الاجر أي مجتهد. نعم انه جعل لمن اجتهد فأخطأ أجراً واحداً ولمن اجتهد فأصاب أجرين. ان أمر انسداد باب الاجتهاد أمر ابتدع بعد انقراض الصدر الاول منه لاسباب: منها انتشار العجمة في المسلمين وعدم استطاعة كثير منهم وكانوا لا يحسنون العربية ان يفهموا القرآن على وجهه ومن الاسباب أيضاً فيما أظن جهل كثير ممن قالوا بعدم جواز الاجتهاد للقرآن الكريم وعدم معرفتهم أحكامه ولغته والا فكيف عموا عن قوله تعالى (ولقد يسرنا — سهلنا — القرآن للذكر — للتذكر — فهل من مدكر) أي فهل من طالب علم منه ومتفهم له فيعان عليه أم كيف غفلوا عما قبح الله به الاولياء من المشركين وندد عليهم اذ قلوا اباؤهم وقصروا أنفسهم على محاكاتهم فيما اعتقدوا وفيما عملوا حيث قال (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم

لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) واذا شئت ان تستقصي ماورد عن الله من
تسفيه أحلام المقلدين والتشهير بهم فعليك بقراءة القرآن الكريم فستجد
منه ما فيه مقنع وما يتذكر الا أولو الالباب

(٢) الاصل الثاني القصد في الاعمال واقامة مالا يشق على النفوس
من التكليف فلقد طالما نص القرآن الكريم على ان الله لا يكلف نفساً
الا وسعها فكل ما ليس في وسع الانسان ان يقوم به فلا تكليف فيه.
والمراد بالوسع أن يكون العمل بحيث لا يجهد فاعله ولا يوقعه في العناء
والتعب فان هذا هو ما يفهم من التعبير بكلمة وسع التي معناها السعة
وعدم الضيق ولقد نهانا الله تعالى عن الغلو في الدين فقد ورد في البخارى
« لن يشاد الدين أحد الا غلبه » وورد فيه أيضاً ان النبي صلى الله عليه
وسلم قال (سدوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيئاً من الدجلة والقصد)
ومن هنا لا ينبغي لمسلم أن يتغالى في دينه وأن يتباعد عن المباحات
وأن يحمل نفسه فوق طاقتها فان هذا ليس من الدين في شيء واعلم أن
المتغالين في دينهم أقرب الناس الى العجز عن القيام به واحتمال تكاليفه
ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (أحب الاعمال الى الله أدومها وان قل)
وقال (ان المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) وقال تعالى (ما جعل عليكم
في الدين من حرج) وقال أيضاً (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)
ومما يناسب هذا الموضوع نازلة كانت موضوع بحث أهل العلم ومتحطيه
في مصر وذلك لبس البرطلة فلقد هاج وماج بعض مدعى العلم علي من
قال بجل لبسها للمسلم فسلمهم بأبيك كيف لهم أن يتقولوا علي الله وينسبوا

ذلك لدينه . ان البرطلة ليست لباساً دينياً وانما هي لباس أمم مختلفة الملل والنحل فمنهم النصراني ومنهم المجوسي ومنهم اليهودي ومنهم العربي المسلم يسكن بعض الجهات الحارة من صحراء أفريقيا وغيرها نعم انها تختلف أشكالها وصورها ولكنها ذات اسم واحد تندرج تحت نوع واحد فان كان شبهة أولئك القوم انها لم تكن معروفة للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لسلفه الصالح قلنا ان هذا لا يقتضى التحريم فهل رأى النبي صلى الله عليه وسلم العمام التي فوق رؤسنا أو القفاطين التي تتدلى أكامها أو الجيب (الفرجيات) التي يمكن أن يتخذ منكم أحدها لباس الجسم بتمامه فليفقه أولئك القوم انهم يقفون ما ليس لهم به علم والله تعالى يقول (ولا تقف ما ليس لك به علم) . ان الطيالة التي استعملها العلماء في خلافة العباسيين انما حاكوا فيها رهبان اليهود وأخبارهم كما ان هذه الجيب الواسعة المستعملة في مصر انما حاكوا فيها علماء وبطارقة بعض المذاهب النصرانية

واعلم ان من موضوع هذا الباب تخرج كثير من شبية المسلمين أن يؤدوا ما فرضه الله عليهم من الصلاة حتى اذا سألتهم في ذلك قالوا اننا لا يمكننا التحرز من النجس لاسيما قطرات البول وكثيراً ما يقضى الانسان حاجته فلا يجد من الماء ما يتطهر به . ومنهم من يقول ان من المشقة أن أخلع نعلين وألبسهما عند كل صلاة ولا يمكنني أن أصلي بهما حسبما يفتينا علماء المسلمين لانه يغلب على الظن عدم سلامتهما من النجاسة التي تكون عادة في الطرقات . فترى أولئك الفتية يتركون الفريضة التي

هي سمة المسلم ومذكروته بالحق تعالى وناهيته عن الفحشاء والمنكر انصياعا
لما أفتاهم به أولئك الجهلة المتغالون والدعاة المعطلون

فمن لي أن يرى أحداث المسلمين مارواه البيهقي مرفوعا «إذا جاء
أحدكم المسجد فليقلب نعليه فلينظر أفيهما خبث فان وجد فيهما خبثا
فليمسحهما بالأرض ثم ليصل فيهما» ومارواه البيهقي أيضا عن أم سلمة
«أنها سألت عن المرأة تطيل ذيلها وتمشي في المكان القذر فقالت أم سلمة
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يطهره ما بعده» وفي رواية له عن أبي
هريرة رضي الله عنه «قلنا يا رسول الله انا نريد المسجد فنطأ الطريق النجسة
فقال النبي عليه الصلاة والسلام (الطرق يطهر بعضها بعضا) وفي حديث
البيهقي مرفوعا «إذا وطئ أحدكم بنعليه في الأذى فان التراب له طهور»
وقد رأى المالكية أن المتعمد في مذهبهم ان ازالة النجاسة سنة أعني
انها لا تبطل الصلاة بوجودها وان كانت مكروهة معها . فلم لا يصلي
ذلك المسلم في نعليه؟ ولم لا يصلي وفي سراويله قطرات البول ولم يسهل
عليه التحرز منها «ولم لا يصلي المسلم في بلاد لم يستطع ان يستنجي فيها»
أيظنون ان الله يريد بهم العسر مع ان الله يقول في قرآنه «يريد الله
بكم اليسر ولا يريد بكم العسر»

(٣) الاصل الثالث من أصول الاسلام انه لا ضرر ولا ضرار :
فلا يجوز لمسلم ان يفعل ما فيه ضرر لجسمه أو عرضه أو ماله كما لا يجوز
له أن يضار غيره فيدخل في ذلك تكليف الجسم بما لا يطيق وشرب المنسكر
والمقامرة وايداء الغير بأي نوع من ضروب الأذى حسبما تعارفه القوم

الذين يعيش فيهم كقتل النفس والسرقة والرشوة والخداع والتمويه
والتدليس وشهادة الزور وهلم جرا

لعلك اطلمت على ماقرره الفقهاء من اباحة التخلف عن الجمعة
لا سباب كثيرة. منها أن يكون بالانسان بحر أو رائحة ثوم أو بصل أو به
مرض معد كالجدام والبرص ونحوهما من كل ما يضر أو تشمئز من نفوس
المصلين ولا يخفى ان هذا الاصل ينبنى عليه كثير من الاحكام الفرعية
والنوازل اليومية في كل عصر

(٤) الاصل الرابع سد الذرائع واعطاء الوسائل أحكام المقاصد
والغايات فكل ما أفضى الى مباح فهو مباح وكل ما وصل بك الى مكروه
فهو مكروه وكل ما وقعك في محرم فهو محرم فكلما أردت أن تحكم على
وسيلة بحكم فقدرها بمعيار غايتها . ولنضرب لك مثلا ما جاء به الشرع من
اباحة تعدد الزوجات فان هذه الاباحة قد قيدها الشرع بقيود منها العدل
ومنها أن لا يفضي التزوج الى ضرر أو محرم أو فساد فاذا قسنا ذلك بما
يحصل عادة على أثر التعدد من الشقاق وافساد ذات البين واغفال الرجل
أمر أو اولاد احدى الزوجات ارضاء لغيرها أو قسوة عليهم وايدائه
لهم فاذا قدرنا تلك الوسيلة وهى تعدد الزوجات بما تفضى اليه من
المضار يمكن الحكم بأنه لا يباح للرجل تزوج أكثر من واحدة الا لمن
أمكنه أن يقوم بجميع ما شرط عليه من العدل وعدم المضارة والفساد
(واعلم) ان من أهم أصول الدين الخفيف اعطاء الظن الغالب حكم اليقين
المجزوم به فاذا غلب على الظن ان العمل مفض الى محرم أو مكروه فانه

يعطى حكم غايته فيحرم أو يكره فلا يعترض علينا هنا بأن امر المضارة مع تعدد الزوجات ليس بالأمر المحقق حتى ينبنى عليه تحريم ذلك علي الرجال فاننا علي تسليم انه غير محقق جدلا لا يسعنا ان ننكر انه أمر غالب علي الظن حتى يوشك أن يكون يقينا

(٥) الاصل الخامس من أصول الاسلام تقديم العقل علي ظاهر الشرع عند التعارض . وأولى بي هنا ان أقتطف ما جاء لاستاذنا الحكيم الشيخ محمد عبده في مقالات الاسلام والنصرانية اذ قال مانصه «اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ننظر اليه علي انه اذا تعارض العقل والنقل أخذ بما يدل عليه العقل وبقى في النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الامر الى الله في فهمه . والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة علي قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل وبهذا الاصل الذي قام علي الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله عليه وسلم مهدت بين يدي العقل كل سبيل وأزيل من امامه جميع العقبات واتسع له المجال الي غير حد فماذا عسى يبلغ اليه نظر الفيلسوف حتى يذهب الي ما هو أبعد من هذا وأى فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم اذا لم يسعهم هذا الفضاء ان لم يكن في هذا متسع لهم فلا وسعهم أرض بجبالها ووهابها ولا سماء بأجرامها وابعادها» اه

ولا يخفى ان تقرير هذا الاصل في الاسلام يدلك دلالة واضحة علي ان الدين المحمدي لم يلزم العقل أن يخالف ما يقتضيه نظره

وبحثه بل انه فوق ذلك قدمه في العمل والاعتقاد على ظاهر المنقول
(اباحة التجمل بانواع الزينة)

قال الاستاذ الامام في كتاب الاسلام والنصرانية مانصه

«أباح الاسلام لاهله التجمل بانواع الزينة والتوسع في التمتع بالمشتهيات
على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية والوقوف عند الحدود
الشرعية والمحافظة على صفات الرجولية. جاء في الكتاب العزيز (يا بني آدم
خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب
المسرفين قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق
قل هي للذين امنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك انفصل
الآيات لقوم يعلمون قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن
والاثم والبغى بغير الحق وان تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا
على الله ما لا تعلمون) ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التي
يذكرنا بها فضله ويهييج بها نفوسنا لذكره وشكره كما قال (والانعام خلقها
لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون
وحين تسرحون وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق
الانفس ان ربكم لرؤف رحيم والحيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق
ما لا تعلمون) ثم قال (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا
منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم
تشكرون) اه

(٧) الاصل السابع وجوب امثال ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم

شرعا دون ما ذكره من معاش الدنيا علي سبيل الرأي
(اعلم) انه قد تقدم لنا بيان أن وظيفة الرسل ارشاد العالم الى طرق النجاح
والاستقامة واقامة العدل فيهم وتربيتهم علي الاخلاق الفاضلة والشيم
الكريمة وبيننا أيضا أن الاسلام يقدم العمل بمقتضى العقل علي ظاهر الشرع
عند التعارض وقد علمنا النبي صلي الله عليه وسلم ذلك وبينه باجلى عبارة
وأوضحها كما روته الكتب الصحيحة فلنأتك هنا بشيء مما ورد فيها
(روى) مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال مررت مع رسول الله
صلي الله عليه وسلم يقوم علي رءوس النخل فقال ما يصنع هؤلاء فقالوا
يلقحون يجعلون الذكر في الانثى فتلقح فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم
ما أظن يعني ذلك شيئا قالوا فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول
الله صلي الله عليه وسلم بذلك فقال ان كان ينفعهم ذلك فليصنعوه فاني
انما ظننت ظنا فلا تؤاخذوني بالظن ولكن اذا حدثكم عن الله شيئا
نخذوا به فاني لن أكذب علي الله عز وجل

(وروى) مسلم أيضا عن رافع بن خديج قال قدم النبي صلي الله عليه
وسلم المدينة وهم يأبرون النخل فقال ما تصنعون قالوا كنا نصنعه قال
لعلكم لو لم تفعلوا كان خيرا فتركوه فنقصت قال فذكروا ذلك له فقال
انما أنا بشر اذا أمرتكم بشيء من دينكم نخذوا به واذا أمرتكم بشيء
من رأيي فانما أنا بشر

(وروى) أيضا عن أنس أن النبي صلي الله عليه وسلم مر يقوم يلقحون
فقال لو لم تفعلوا لصلح قال فخرج شيخا فمر بهم فقال ما نخلكم قالوا

قلت كذا وكذا قال أنتم أعلم بأمور دنياكم
كأني بك ترى ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم على نفسه وهو سيد
المنصفين صرح لك الرسول بأنه إنما هو بشر وإن أهل كل حرفة
أو صناعة أدري بمسائلها وبمخفاياها من غيرهم وإن عصمة الرسل
إنما تجب فيما إذا بلغوا عن الله شيئاً من شرائعه ونواميسه. ومن هنا نعلم أنه
لا يجب الأخذ بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من أمور الدنيا
وأحوالها وحرفها وطبها وصنائعها لأن هذا ليس مما يوحى به إليه من
الشرائع

(٨) الاصل الثامن المساواة بين المسلمين في الاحكام وكذا
بينهم وبين جميع من لهم ذمة وعهد فان لهم ما لهم وعليهم ما عليهم فلا
يفضل أحد أحداً في اعتبار الشرع الا بالتقوى والعمل الصالح (ان
أكرمكم عند الله أتقاكم) فقد جعل الله الغني والفقير والمأمور
والامير والعزير والحقير سواء في أحكامه سواء في ذلك الاحكام
الدنيوية والاخروية واعتبر ذلك بصيغ العموم التي تراها في غير موضع
من القرآن الكريم نحو قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن
يعمل مثقال ذرة شراً يره) ومن الغريب أن الفقهاء الذين يدعون فهم
كلام الله ويظهرون للعالم بسببهم وسواد موضع السجود من جباههم طالما
حابوا الامراء وتأولوا كتاب الله بما يوافق اغراضهم حرصاً منهم على
استرضاء من لا يضررون ولا ينفعون راضين بما سخط الله عليهم اذ فرقوا
دينهم وكانوا شيعاً فشحناوا كتبهم بما تضارب من الاقوال وخالفوا أمر

القرآن كما في قوله (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءتهم
البيانات) وقال تعالى (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء)
وقال تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) واذا أردت ان تأتي
على ماورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الاتفاق وعدم الفشل والاختلاف
فعليك بكتب السنة الصحيحة

(٩) الاصل التاسع أن لا تزر وازرة وزر أخرى ففي سورة الطور
(كل امرئ بما كسب رهين) وفي سورة المدثر (كل نفس بما كسبت
رهينة) وقال تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وفي سورة النجم (أن
لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه
سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى)

ولا يقال ان من أحكام الشريعة ما لا يقتصر على الجاني كما في دية
القتيل فانها على عاقلة القاتل وكما يؤخذ من قوله تعالى (واتقوا فتنة
لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) لا نناقول ان امر الدية انما ألزمت
بها العاقلة في الشعوب التي لها عصبية قائمة ووحدة وعهد بحيث انهم
يكونون يداً واحدة علي من سواهم فاذا اصاب أحدهم شيء تعاهد الباقي
على الاخذ بثاره او المطالبة بديته كما هو الشأن بين البدو وكثير من العرب
حتى الآن ولذلك تجد الفقهاء ينصون على انه لا عاقلة في الامم التي
لا تتضامن قبائلها كالفرس والفرنجة والمصريين وغيرهم من الامم التي
لا اثر فيها لتلك اللحمة التي تجعل الحى او البطن او القبيلة كأنها رجل
واحد فأخذهم الشرع كما اخذ لهم وانتقم منهم كما انتقم لهم وهذا من

الوجوه التي تبين لك كيف جاء الاسلام مطابقا للاحوال البشرية
ملائما لها على اختلافها

(١٠) الاصل العاشر ان جميع الزواجر تقدر حسبما يراه الامام او
من ينصبه من القضاة للفصل بين الناس طبقا لما يقتضيه العرف العام كما
ان من أصوله جواز التحكيم

واعلم ان الشرع الشريف قد حدد بعض العقوبات كجزاء القتل
والسرقة ونحوهما وهي قليلة جدا بالنسبة لما ترك الشارع امر تحديده الى
الحكام ونوابهم فقد أجمع الائمة على ان التعزير مشروع في كل جنائية
لا حد فيها ولا كفارة وجوز الامام مالك للامام الحاكم ان يبلغ بالتعزير
أعلى درجات الحدود المقدرة

أما التحكيم فقد أجازته الشارع في الاصول المالية وذلك ان يحكم
رجلان بينهما خلاف رجلا من أهل النظر والرأي للفصل فيما شجر
بينهما وقد ذهب بعضهم الى اعتبار قول الحكم أمرا مقضيا لا يتوقف
في تفرره وثبوته على أن يقرره قاض شرعي ولا أمير ولا حاكم

(١١) الاصل الحادي عشر تقدير كثير من الاحكام بما تعرف بين
الناس . ولا يخفى ان هذا الأصل قد أوسع دائرة الاحكام الشرعية حتى
وسعت تقريرا جميع النوازل على تغير اشكالها وتباين احوال اربابها فمن
ذلك أمر النفقات الزوجية فانه يراعى في تقديرها عند الحكم بتقريرها
حالة الزوجين فرب تفقه تلامم زوجة على انها لا تلامم اخري وقد كثر
التعبير بكلمة « المعروف » و « العرف » في القرآن العزيز وعلق عليهما

تقرير كثير من الاحكام ومن البديهي انه لا معنى للمعروف والعرف الا
ما كان متعارفا مألوفاً غير مستنكر كما ان المنكر هو ما لا يجري به عرف
والفة فمن الآيات المحتوية عليها قوله تعالى (طاعة وقول معروف) وقوله
(الطلاق مرتان فأمسك بمعروف أو تسريح بإحسان) وقوله (الامن
أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس) وقوله (وعاشروهن
بالمعروف) وقوله تعالى (فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف)
وقوله (وأتمروا بينكم بمعروف) وقوله (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن
بالمعروف) وقوله (وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا
تظمهما وصاحبهما في الدنيا معروفا) وقوله في شأن الاوصياء (ومن كان فقيراً
فليأكل بالمعروف) فتري في هذه الآيات وكثيراً غيرها أن الله تعالى قد
فوض أمر تقدير كثير من المعاملات الى ما جرى به العرف والعادة من
غير تقييد بأهل مكة أو أهل المدينة أو غيرها بل أطلق الامر اطلاقاً
ولا ريب أن العرف يختلف باختلاف أهله وطبقاتهم وما اعتادوه بينهم
حسبما يقتضيه الزمان والمكان ولذا كان من القصور تعرض بعض من
الفقهاء الى تحديد مثل متعة المطلقة أو نفقة الزوجة وتقدير كثير من
الاحكام بما جرى عليه عرف أهل المدينة المنورة محتجين بعملهم وأنهم
أعلم الناس بما مات عنه النبي صلى الله عليه وسلم كما ان من جمود القرينة
وقصور النظر تفسير هذه الكلمات بغير ما يتبادر منها فان هذا نخرج
للكتاب العربي المبين على غير ما أريد منه ومما يناسب هذا المقام أن
القرآن قد أتى بالفاظ أخرى عامة لتكون صالحة للحمل على ما يناسبها

من النوازل والاحوال فمن ذلك كلمات « الصالحين » و « الصالحات »
و « صالحا » في كثير من الآيات فان المراد من مادة الصلاح هنا ما ليس
سوءا كما يؤخذ من قوله تعالى (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) فان هذه الآية
ناطقة بأن كل عمل سيء فهو غير صالح وان كل مسيء فهو غير صالح وانه
لا صلاح في سوء فيدخل في ذلك الملك الجائر والحاكم الذي أغفل أمر
دولته حتى تمكن الضعف منها وجري الفساد في عروقها وتمشى الخلل في
أطرافها حتى أصبحت لا تزداد الا نقصا ولا تعظم الا فسادا فلا جرم أن
مثل هذا الحاكم لا شائبة صلاح فيه ولو قطع الليل تسبيحا وقرآنا. ومن
هنا فسر استاذنا قوله تعالى (ان الارض يرثها عبادي الصالحون) بأن
المراد الصالحون لعمارتها بأن امثلوا أمر الله فأعدوا لانفسهم ما استطاعوا
من القوة وأحسنوا الى انفسهم فكاتفوا الامم في الاخذ بوسائل القوة
والمجد فلم يلتمسوا المسببات الا من أسبابها ولم يأتوا البيوت الا من
أبوابها

ومما ينخرط في هذا الباب خطأ كثير من المسلمين في فهم التوكل
الذي حض عليه القرآن غير مرة اذ قالوا ان التوكل هو تفويض الامر
الى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الاسباب المألوفة ثم ان منهم من
اكتفى بعد ذلك بالبلغة من العيش الخشن ولم يستزد حتى مات. ومنهم
من اتخذ من أسماء الله مصادر للرزق فظن ان من يذكر اسم الوهاب كذا
كذا مرة وهبه الله من المال ما يزيد عن حاجاته ومن قرأ (ومن يتوكل
على الله فهو حسبه) كفاه الله مؤنة السعي لطلب الرزق من معاهدته العادية

ولقد كثر هؤلاء في المسلمين فكثرت بهم المفاسد وانحطت بسببهم
الهمم وأزال الله عنهم كثيراً من النعم وإن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن
الناس أنفسهم يظلمون

نددت الأمم الغربية وكثير من الشرقيين بالاسلام والمسلمين لما
نزل بهم من الضعف وانحلال العقدة والفشل وزعموا ان منشأ ذلك هو
أصول الدين الاسلامي محتجين بأعمال أولئك الطوائف من المسلمين وبما
كذبوا على الله في تأويل آياته الكريمة نحو (وعلى الله فليتوكل المتوكلون)
ونحو (اني توكلت على الله ربي وربكم) ونحو (ومن يتوكل على الله فهو
حسبه) ونحو ماورد في الصحيح من قوله صلى الله عليه وسلم «لو توكلتم
على الله حق التوكل لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خفاصاً وتروح بطاناً»
انني لا يسعني هنا أن أفند جميع ما قيل في هذا المقام لضيقه ولكن
حسي أن أنبهك الى أن الاستدلال على فساد هذا الدين بما أصاب أهله
حجة داحضة وبرهان واهن فان نظرة قليلة فيما مضى من تاريخ المسلمين
يوم كانوا متوكلين على الله تعالى تلجم هؤلاء المتقولين على الاسلام وتلزمهم
الحجة بأن ما طرأ على المسلمين بعد لم يصبهم الا بعد أن تركوا التوكل
على الله فلم يعملوا بما أرشدهم اليه من وجوب الاخذ بالاسباب العادية
فانه سبحانه وتعالى خلق الاسباب والمسببات وخلق ما بينهما من حجة
السببية فالتماس تلك الاسباب لا ينافي التوكل في شيء بل انه نفس التوكل
وما تفسيراً أولئك الناس التوكل بالتفويض المطلق والتقاعد عن الكسب
والتحصيل لما أفضى بهم الى الاضمحلال فانما منشؤه الجهل بلغة

القرآن الكريم

ذلك الرسول وهو سيد المتوكلين يرشدنا بقرآنه وبجميع أعماله الى
أن لكل شئ سبباً لا يمكن الحصول عليه الا باتخاذ ذلك السبب أو
ما سمعت قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذرکم) وقوله (وأعدوا
لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)
ونحو (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) الي غير ذلك من الآيات
على انك لو تأملت قليلاً في قوله صلى الله عليه وسلم: لرزقكم كما يرزق
الطير. الحديث لتجلى لك الامر واضحاً لا لبس فيه فان النبي صلى الله
عليه وسلم لم يقل — لرزقكم كما يرزق الطير تمكث في أوكارها والله يرسل
اليها أغذيتها — بل قال تغدو خماساً وتروح بطاناً

وفي صحيح البخارى عن علي رضي الله تعالى عنه قال كنا جلوساً مع النبي
صلى الله عليه وسلم ومعه عود ينكت به الارض وقال ما منكم من أحد
الا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة فقال رجل من القوم ألا
تتكلم على كتابنا وندع العمل يارسول الله قال لا تعملوا فكل ميسر لما
خلق له ثم قرأ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى
على ان الله سبحانه وتعالى بين لنا ضرورة علاقة المسببات بأسبابها
صراحة وانها من الامور الفطرية التي فطرت الممكنات عليها فقال في
الكتاب العزيز

(ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ومن ذلك أيضاً
قوله تعالى (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا (أى أكثرنا) متر فيها ففسقوا

فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) فليتق الله المسلمون في دينهم
وليتباعوا به عن النقائص التي شوهوه بها وعرضوه بسببها الى طعن
الطاعين وغلوا الآفكين

والخلاصة ان الدين الاسلامي لما احتوى عليه من تلك القواعد الكلية
والاصول العامة وأشباهاها جاء صالحا لان يتغنى بواسطته كل خير في
كل زمان ومكان. ومن هنا يتضح لك جليا وجه كون الرسول عليه الصلاة
والسلام خاتم النبيين وان شرعه خاتم الشرائع الالهية كما انه لم يخالف في
شيء من أصوله وقواعده سنن الله الفطرية التي فطر العالم عليها ولذلك
لا حرج علينا في تسميته « دين الفطرة » وبعد فاعلم ان هناك بعض أحكام
جاءها الشرع فكانت مطعن الجاهلين من الامم قصار النظر فرأينا ان نأتي
عليها هنا تسميا للغرض الذي وضعنا له هذه العجالة الا اننا نريد قبل ذلك
ان نأتيك بما ورد في القرآن الكريم من صفات المؤمنين وما يجب ان
يكونوا عليه وأكل اليك بعد ذلك الحكم في اعتبار مؤمني هذا الزمان
والله يوفقك الى سبيل الرشاد

(١) قال تعالى في سورة المائدة خطا بالموؤمنين (ولا يجر منكم شأن
قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى
ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله) أي لا يحملنكم بعض قوم
صدوكم عن الدخول في المسجد الحرام على أن تعتدوا عليهم بل يجب
عليكم العدل كما يجب عليكم أن تتعاونوا على الاحسان واتقاء ما يسخط الله
من مخالفة أوامره وفي معنى ذلك قوله تعالى (ولا يجر منكم شأن قوم على

ان لاتعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى) فان الله يأمرنا هنا أن لانطيع
ما تكنه صدورنا من بغض أحد على الاعتداء عليه بل يجب أن يوفى كل
ذى حق حقه وأن تقدر المعاملة بمقيار العدل فانه اقرب للتقوى

(٢) وجاء في سورة النور (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم
يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين واذا دعوا الى الله
ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق
يأتوا اليه مذعنين أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف
الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون انما كان قول المؤمنين اذا دعوا
الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون)
نزلت هذه الآية في قوم ادعوا أنهم مؤمنون مدعون لقضاء الله وأحكامه
حتى اذا دعوا الى شريعته لتفصل بينهم ألقى الشيطان في ضمائرهم انهم
ربما ظلموا فأخذتهم العزة بالاثم فأعرضوا عن أحكام الله وهم ظالمون
ولكن اذا كان لهم الحق جاؤا الى المحاكم سراغاً مذعنين وقد بين الله
تعالى هنا ان تلك ليست من صفات المؤمنين في شئ وما كان
للمؤمنين الا أن يسمعوا ويطيعوا وينصاعوا الى قضاء الله وأحكامه سواء
كانوا ظالمين أو مظلومين

(٣) وجاء في افتتاح سورة المؤمنون (قد أفلح المؤمنون الذين هم في
صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون
والذين هم لفروجهم حافظون) — الى أن قال — (والذين هم لأمانتهم وعهدهم
راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون) فليت شعري كيف يكون

لمؤمني هذا الزمان أن يتبجحوا بأنهم في اعتبار الشرع مؤمنون مع أن الله تعالى لم يصف المؤمنين بأنهم الذين عن صلاتهم لاهون والذين هم على اللغو مقبلون والذين هم للزكاة مانعون والذين هم لشهواتهم مرضون والذين هم لاماناتهم وعهدهم خائون

(٤) وجاء في سورة الانفال (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا) الى أن قال (أولئك هم المؤمنون حقا)

(٥) وفي سورة الحجرات (قالت الاعراب آما قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم) الى أن قال (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) فانظر كيف وصف المؤمنين بما وصف وانظر الى استعمال الحصر هنا في قوله (انما) ثم تأكيده ذلك بقوله (أولئك هم الصادقون)

(٦) وجاء في سورة الممتحنة (يا أيها النبي اذا جاءك المؤمنات يبأعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبأعنه) يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن ليس الايمان مجرد النطق بالشهادة والمبايعة على أن محمداً رسول الله فإن هذا لا يكفي ولقد بين الله في هذه الآية البيعة التي يكون بها المؤمن مؤمناً فتدبرها حتى تعلم مبلغ ايمان الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم . فبأبيك أيها المؤمن أجد

فيما وصف الله به المؤمنين اتخاذ المساجح وإطالة اللحى واختضاب الشعر
وتحديب الظهر وملازمة الزوايا؟ ألا إن الويل كل الويل لمن حرفوا
الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به

الخلاصة: أن من آثار الإيمان القلبي الصادق إقامة ما وقع الإيمان به
وملازمة حدوده ومخالفة وساوس الصدور فمتى رأيت من ينقاد إلى شيطانه
ويتكلم على غير ربه ويحارب شريعته فاعلم أنه غير مؤمن أو ما رأيت ما قاله
تعالى في قرآنه الكريم (أنه — أي الشيطان — ليس له سلطان على الذين
آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) فكل من وجدت للشيطان سبيلاً عليه
فاعلم أنه غير مؤمن أفحسب أو تلك الضالون أنهم على شيء. وقد جاء في
البخاري عن سفيان بن عيينة قال ما في القرآن أشد على من قوله تعالى (يا أهل
الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم)
— أي القرآن — ومعنى إقامة هذه الكتب أمثال جميع ما فيها والالتيان به
على وجهه فإن جاء العمل دون ذلك فإنه لا يسمى إقامة لما حوته تلك الكتب
الشريفة من الأحكام فكيف لاحد بعد ذلك أن يدعى أنه على شيء من
الإيمان بالله وكتبه ورسوله حتى يمثل ما فيها

ومن هنا يتضح أن الإيمان الصادق يستدعي الإتيان بالعمل وهذا
والله أعلم سر ما رواه البخاري في صحيحه من قوله عليه الصلاة والسلام
« لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق
وهو مؤمن »

قال القسطلاني — الإيمان هو التصديق بالقلب والاعتراف باللسان

وتقرره الاعمال الصالحة واجتناب المناهي فاذا زنى أو شرب الخمر أو سرق
ذهب نوره وبقي في الظلمة فان تاب رجع اليه — اه — وأمثال ذلك في
الكتاب الكريم والسنة كثير ولكنها لا تعمي الابصار
هذا والمستقرى لعبارات القرآن الكريم قلما يجد فعلا أو وصفاً
مشقفاً من الايمان الا وهو مشفوع بعمل الصالحات فمن ذلك قوله تعالى
(الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقوله (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً)
وهلم جرا. يريد الله بذلك وهو أعلم أن يوقظ العقول الى أن مجرد معنى
الايمان في اللغة أى الاعتقاد لا يكفي في الحاق صاحبه بفئة المؤمنين حتى
يقرن اعتقاده بصالح الاعمال. واعلم ان الله تعالى قد ضمن الامن والهداية
لمن لم يشب ايمانه بظلم ولا جور فقال (الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم
أولئك لهم الامن وهم مهتدون) ومن هنا نعلم ان الايمان لا ينجى صاحبه
من النوازل والمصائب حتى يقرن كما قلنا بالعمل الصالح. ولنا من نوازل
هذا الزمان أصدق برهان وأفصح ترجمان فليقتصر أولئك الاخسرون
أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً

٦

الرق في الاسلام ومطابقته لمقتضى الفطرة

تمهيد — كانت القوانين في الازمان السالفة غالباً من الاوضاع البشرية
فكان يسن الفرد أو الافراد ماشاؤا من النواميس التي لم يراعوا فيها
عدلاً ولا نصفة ولا مساواة بين أفراد الانسان فيما لهم وما عليهم
كان محض ارادة القوى وسلطانه هو القانون والسنن التي يسارع على

مقتضاها فكان عدم تساوى الافراد فى القوى الجسمية والعقلية الذى اقتضته
سنة الكائنات الحيوية هو منشأ تسخير القوى للضعيف وغلبته عليه حتى
أفضى ذلك بعد الى وجود ناموس عادى اقتضى أن يكون ثمة مالك
ومملوك وقاهر ومقهور .

ان استخدام شخص لآخر واستمتاعه بقواه الجسمية بلا أجر
هو ولا ريب أساس الاسترقاق الذى نشأ مع نشأة الانسان فان من
استقرأ التاريخ وجد انه لا يكاد يخلو عصر من العصور من وجوده
فى أهله وجدت أجرامه فى كل جاهلية ثم تعدتها الى ما كان معها من
الامم المتحضرة وبقيت فيها حتى بعد انقضاء الحاجة اليه وزوالها أصلا
فلقد عرف الاسترقاق فى اليهودية واليونان والرومانين كما عرف بين
قدماء الالمان ولقد أفرط الآخرون فى استخدام الرقيق حتى ضرب بهم
المثل فى ذلك

ولقد وجد عند اليهود منذ نشأتهم نوعان للاسترقاق . أحدهما
استرقاق بعض أفراد منهم لسبب ارتكابه خطيئة من الخطايا المحظورة
شرعا أو فى دين عليه وكان لهذا الرقيق أن يتحرر بعد مضى ست سنوات
عليه فى خدمة من هو فى ملكه الا اذا فضل البقاء رقيقا. والنوع الآخر
استرقاق غير اليهود ممن قضى عليهم أن يصيبهم شئ من عسف اليهود
وحروبهم التى كانوا يقيمونها بلامسوغ سوى الشره على السيادة وارضاء
نفوسهم الخبيثة بما شاءت من الظلم فكانوا يبيعونهم كما يباع المتاع ويعاملونهم
أقبح من معاملة الحيوانات العجم سواء فى ذلك العبيد المستخدمة فى المنازل

وعبيد الحقول والمزارع فانهم كانوا يقضون حياتهم مبغضين مهينين
معزولين محقرين مسخرين ثم جاء المسيح عليه السلام فلم يمنع الاسترقاق
ولم يضع حدوداً تراعى ولا وسيلة تؤدى يوماً ما الى نسخه أو تقليده نعم انه
جاء ببعض كلمات تتعلق بعدم طاعة الرقيق وبعض نصائح للسادة ليتمكنوا
الرقيق من تلقي ما جاء به المسيح عليه السلام من قواعد دينه على ان كثيراً
من الامم المسيحية كانوا أشرفه الناس على اتخاذ الرقيق وأقسامهم في معاملته
انتشر الاسترقاق بين الرومان منذ نشأتهم الاولى من غير تفریق
بين من كان رومانياً أو اجنبياً فكانوا يملكونهم اما بحرب أو شراء أو
اختطاف ولا يعتبرونهم الا متاعاً ولقد تغالوا في السيطرة عليهم فلقد كان
للسيد أن يتصرف في عبده حتى كان له أن يقتله نعم انه قد هذب هذا
القانون بعد حتى خف في الجملة على الارقاء اعباء ما كانوا يحملون ولكنهم
مع ذلك كانوا تحت سلطة سادتهم المطلقة فلقد كان لامراء الرومان
وأشرافهم الالوف من الارقاء يستخدمونهم فيما شاؤوا ويوقعون بهم من
الآلام ماشاً وغير مسوئين عما فعلوا .

ان دخول الدين المسيحي في أوروبا لم يقلل من الاسترقاق الا من
جهة واحدة. ذلك أن الرقيق كان يصير حراً بالرهانية وانقطاعه الى خدمة
الدين على شرط أن لا يظهر له سيد يدعيه في خلال ثلاث سنوات. أما
من الجهات الاخرى فان الاسترقاق بين مسيحي أوروبا لم يكن بأخف
بطشاً ولا أسلم عاقبة مما كان بين الوثنيين والمجوس. ولقد جاء في جملة
قوانينهم المدنية ان الاسترقاق من الامور الطبيعية كما انها قدرت اثمان

العبيد واعتبرت في تقديرها ما يحسنه الرقيق من المهن والاعمال.
ومنها عدم اباحة التزاوج بين الارقاء ولا بينهم وبين الاحرار وقد قدر
القانون أشد العقوبات صرامة فيما اذا تزوج الرقيق حرة ففضى على الحرة
المتزوجة بالعبد بالقتل وقضى على الزوج أن يحرق حيا. كان ذلك حال
الاسترقاق في أوروبا في القرن الثالث عشر للمسيح عليه السلام
فلما تقوضت أركان المملكة الرومانية وأسست على انقاضها المملكتان
الشرقية والغربية لم يقف أمر الاسترقاق الى الحد الذي كان مألوفاً عند
سلفهم بل كان لاشراف الامتين وأمرأهما القول الفصل والرأى الاعلى
والكلمة النافذة في الفلاحين الذين تحت أيديهم فكانوا ملاكهم وحماتهم
وسادتهم وحكامهم فلم يكن في ذلك الوقت من هو أرقى منهم حكمة
وأعلى سلطانا سوى نفس الحكومة التي قلما وضعت بين المالك والمملوك
شيئا من الحدود

على ان الكنائس في أوروبا قد اتخذت الارقاء وأباحت لغيرها
اتخاذهم كما ان كثيراً من الناس كانوا يذهبون الى استحسان ذلك واعتباره
من أحسن الوسائل لمنع الناس من السوء ولقطع دابر السارقين وقطاع
الطرق (واعلم) أن أقبح أنواع الاسترقاق ما كان في أمريكا الشمالية ولم يزل
فاشياً فيها حتى كانت الحروب الدينية التي تأججت نارها في سنة
١٨٦٥ الميلادية

نحا كثير من الامريكيين نحو ما كان عند الامم السالفة من اليهود
والفرس والرومان على ما هم عليه من العلم الغزير والتحضر الذي لم يسبقوا

اليه فكان الامر يلكى الابيض النصرانى يملك الامة السوداء ويولدها البنين
على انه مع ذلك لا يعتبرها أم ولده كما فعل الاسلام بل كان لابنه الابيض
أن يبيعها ويبيع ذريتها الذين هم أخوته من صلب أبيه

وبالجملة يمكن الحكم بان الدين النصرانى لم يأت بما يقطع دابر
الاسترقاق أو ينافيه كما ان الامم المسيحية على اختلافها وتباين مشاربها
كانت لا تبالي أن تسترق من شاءت وان تستخدم الرقيق كيف شاءت
وتعامله كما شاءت ولم يزالوا كذلك حتى انتشر أمر التعليم فيهم فهذب
من نفوسهم وأضعف من قسوتهم فتعاهدواهم وغيرهم من الامم
المتحضرة على حماية نوع الانسان والحيلولة بين أفرادهم أن يسيطر
بعضهم على بعض الا بقدر ما تقتضيه النواميس الشرعية. على اننا شاهدنا
بأنفسنا أحوالا استبيح فيها الاسترقاق بلا مسوغ عادل بل روعى فيها
مقتضيات النظام. فمن ذلك أن الحكومتين المصرية والانكليزية افتتحتا
حديثا بلاد السودان المصرى فهم العبيد الذين كانوا هناك بمغادرة ساداتهم
لعلمهم ان الحكومات النظامية المتحضرة هي حامية الحرية ومؤيدتها فلما
رأت الامة الفاتحة ان هذا لا بد أن يفضى الى تعطيل الاعمال وارتباك
الاحوال وبوار الحقول والمزارع أقرت ما كان على ما كان وجارت
أحكام الزمان والمكان

واذ قد فرغنا من بعض المقدمات التمهيدية فدونك ما فعل الاسلام

في الرقيق والاسترقاق

(١) سوى الاسلام بين الامم من غير اعتبار اختلاف أصنافها

وألوانها فسوى بين الابيض والاسود والبدوى والمتحضر والرعايا
والمرعين والرجال والنساء والمسلمين واليهود والنصارى ماداموا فى سلم
انظر الى المسلمين وهم فى المسجد يؤدون فريضة الصلاة أو فى
مكة وهم يحجون البيت الكريم أو فى المحاكم الشرعية فى صدر الاسلام
أفتجد فيهم من مقدم ومؤخر أو من فاضل ومفضول كيف والله تعالى
جعل المؤمنين اخوة كما لم يجعل بينهم تفاوتاً الا بقدر ما يتفاضلون به من
الحق فلقد قال عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع

« أيها الناس انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرئء مال أخيه الا عن
طيب نفس فلا ترجعن بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فاني
قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لن تضلوا بعدي — كتاب الله — أيها
الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ان
أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي فضل على عجمي الا بالتقوى »
أين هذا مما يفعله أهل أمريكا حتى الآن وهم فى مقدمة الامم
حضارة وعلماء؟ ازدرى البيض منهم السود وامتهنوهم لسواد ألوانهم
وتجنّبوهم وحرّموهم كثيراً من المزايا التى استمتع بها البيض ولطالما
نشرت الجرائد ما يفعلون بهم من الفتك والمقت والتجاني عن مخالطهم
حتى لقد خصصوا لهم فى مراكب السكك الحديدية مقاصير خاصة بهم
لا يجوز لهم أن يتجاوزوها الى غيرها

زعم كثير من الناس لاسيما من غير المسلمين أن الاسلام أباح
للناس اختطاف غيرهم من السود أو البيض مستدلين على ذلك بما يفعل

النجاسون من أهل البادية وأهل السودان وكثير من الأتراك وقد
تقدم لنا أنه لا ينبغي الاستدلال على صحة الدين أو فساده بما يفعل أهله
فإن هذا من العبث الذي ينبغي أن تصان عقول العقلاء عنه

إن الشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلاً ثم أنه لا يبيح بعد ذلك
الاسترقاق أسرى حرب شرعية لم تقم إلا لاعتلاء كلمة الله تعالى مراعى
فيها أن تكون مسبوقه باعتداء غير المسلمين عليهم . فمن هنا يؤخذ أن
أسرى الحروب التي أقامها كثير من أمراء المسلمين وخطائهم لا لغرض
سوى النهب والسلب والبطش مع العدو وان على الغير لا يجوز استرقاقهم
بمحال سواء كانوا مسلمين أو غيرهم كتابيين أو وثنيين أو مجوساً

أما استرقاق غير المحاربين ممن لا كتاب لهم ولا شبهة كتاب كعبدة
الأوثان فقال مالك والشافعي وأحمد في إحدى روايته أن ذلك لا يجوز
مطلقاً فماذا ترى فيمن يذهبون إلى الصحارى ويحتطفون ما وصلت إليه
أيديهم من السودان وغيرهم ثم يجلبونهم كما يجلبون المتاع فيعرضونهم في
الأسواق عرض الحيوانات العجم وكثير منهم مسلمون ؟ وماذا ترى في
كثير من الأمراء وشيوخ المسلمين يجهلون إليهم ويسومونهم كما يسام
المتاع ثم يسوقونهم إلى بيوتهم أمانة الخدمة وأمانة الأفراس ؟ وماذا ترى في
الذرية التي ينتجها أفراس ابنتي على هذا الاسترقاق الفاسد ؟ إن الدين
لبريء مما جنى عليه أولئك الطغاة الجهلة وطاهر مما ألقوه به من ذلك
الدنس والرجس قد سولت لهم نفوسهم الخبيثة ما شاءت أن تسول فافتاتوا
على الله ونسبوا إليه ما نسبوا متقولين عليه وهذا قرآنه الكريم قائم ناطق

بتكذيبهم وتأنيبهم

(واعلم) ان هناك نوعا من الاسترقاق فشا في المسلمين أيضا وهو لا يبيحه الشرع أيضا ذلك ان بعض أم آسيا كالتوقاز وغيرهم قد يحدو بهم الفقر المدقع الى جلب بناتهم بأيديهم الى أسواق بعض المدن الاسلامية وهن صغار جدا ليبيعهن الى الامراء والمترين من الرجال ولقد يكون منهن المراهقات والنساء حتى اذ صارت احداهن في ملك أحد استباح منها واتخذها فراسا يخادع الله بما عقده من البيعة الفاسدة وما يخدع الا نفسه من حيث لا يشعر فيظل طول حياته مستبيحا ما حرمه الاسلام ويدخل في دينه ما أمته عليه وساوس الاوهام

هذا . ولنعد بك الى ما يتعلق بالرقيق في الاسلام فنقول

- (٢) كل من أسلم من الاسرى عصم نفسه وماله
- (٣) مجرد دخول العدو المحارب دار الاسلام أمان له من السبي عند مالك والشافعي وأحمد بن حنبل
- (٤) للرقيق في الاسلام أن يتزوج بنت سيده فينقلب بذلك سيد البيت

أين هذا مما سبق لنا نقله من قوانين أوروبا في القرن الثالث عشر من تحريم الزواج بين الارقاء وكذا بينهم وبين الاحرار وانه يجب قتل المرأة التي تزوجها عبد كما يجب احراقه حيا؟

(٥) جاء الاسلام فوضع من الاصول والنواميس ما كاد يقضي على الاسترقاق لولا ان الامم العربية وغيرها كانت اذذاك على ما نعلم في أمر

الاسترقاق وبديهي انه لا يمكن ان يزيل النبي عليه السلام في بضع سنين
أمراً ألقته النفوس واستولى عليها ذلك الاستيلاء. لذلك كان النبي عليه
السلام يرغب الناس في العتق كما جعل هناك أحوالاً يلزم فيها السيد
بالاعتاق . فمن ذلك

(١) اخبار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه غير مرة بان العتق من
أجل العبادات وأقربها قبولاً عند الله

(٢) انه جعل كفارة لبعض الخطايا والحنث في بعض الايمان

(٣) ان مكاتبه العبد مستحبة بالاجماع وللإمام أحمد في رواية انها
واجبة متى دعا العبد سيده اليها على قدر قيمته أو أكثر وان للعبد
الاستغلال ليحصل على ما يدفعه لسيده من نجوم الكتابة وان على سيده
ان يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء

(٤) اذا امتنع المكاتب عن الاداء ومعه ما بقى فالحنفية تجبره على
الأداء . واذا لم يكن معه مال ولكنه قادر على الكسب فالمالكية تجبره
على الكسب لانه ليس له تعجيز نفسه مادام قادراً عليه

(٥) يراعى في عقد الكتابة حالة الرقيق فأقل وعد من السيد أو
أقل احتمال للوعد بالتحريم يجعل التحريم ضرورياً

(٦) اتفق الأئمة على انه لو كان في يد انسان غلام بالغ عاقل وادعى
عليه انه عبده فكذبه الغلام فالقول قول المكذب مع يمينه انه حر .
فترى في هذه الصورة ان قاعدة (البينة على المدعى واليمين على من انكر)
قد خولنت مراعاة حالة الرقيق فلم يطلب الشرع من المدعى البينة أولاً

بل جعل القول للمنكر يمينه ولا يخفى ما يدل عليه هذا من شدة حرص
الشارع على تحرير الرقاب ما وجد لذلك سبيلا

(٧) قد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطي
الحاكم للرقيق المكاتب ما يستعين به على فك رقبة أو أن يشتري الحاكم
العبيد المملوكين ويعتقهم

(٨) ان من افترش أمة وأتى منها بأولاد فهي أم ولده لا يجوز له
أن يبيعها ولكنها لا تتحرر تماما الا بعد موته

(٩) استوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالارقاء خيرا فجعل حقوق
العبد على سيده كحقوق المترافقين والمتجاورين والمسافرين فلا يجوز
للسيد أن يكلف رقيقه ما لا يطيق من العمل أو أن يدعوه بألقاب الازدراء
والتحقير كما لا يجوز للسادة أن يفرقوا بين أنفسهم وبين عبيدهم في
المأكل والملبس ونحوهما



المرأة في نظر الاسلام

قبل التكلم على المرأة في الاسلام نأتيك بشذرات تبين لك شأنها
قبل ظهور ذلك الدين الحنيف في الامم المختلفة ثم نردف ذلك ببيان
ما منح الله المرأة في الاسلام غير معولين في جميع ذلك الا على كتاب
الله تعالى وسننه الصحيحة

كلنا يعلم ما كانت عليه أمة الفرس من الحضارة القديمة كما نعلم
ما اشتهر به بعض ملوك فارس من العدل والفضل حتى ضربت بهم

الامثال أفادك على ما كانت المرأة تعامل به فيهم؟ كان للرجل ان يتزوج
من النساء من شاء من غير وقوف عند حد ولا تقيد بشرط ولا سؤال
عن حق ولقد كان له أيضاً أن يتخذ من الاخذان من شاء

فاذا اعتبرنا العرب الذين ظهر فيهم النبي صلى الله عليه وسلم نجد
حالة المرأة فيهم أبشع واشنع فلقد كانت المرأة بين وثني العرب معتبرة
سلعة محضة فاذا مات رجلها ورثت فيما يورث حتى كان لابن الوارث
أن يفرش زوجة أبيه أو أمته كما كان له ان يهبها لمن شاء وأن يبيعها
ممن شاء هذا عند وثني العرب

ولم تكن منزلة البنت اليهودية عند أبيها أرفع شأنها من ملك اليمين
فلقد كان للاب أن يبيع ابنته قبل بلوغها كما كان لابنه الذكراً أن يفعل ذلك
وكانت العرب وثنيتهم ويهوديتهم يتزوجون من النساء ولا يقتصرون
على عدد كما كان نكاح المتعة فاشياً فيهم حتى جاء الاسلام فأبطله على ما يأتي
كانت العرب تئد البنات إما من فاقة أو خشية عار يأتيه متى
كبرن حتى قال قائلهم « دفن البنات من المكرمات »

هكذا كان شأن المرأة بين أكثر قبائل العرب وغيرهم فلم تكن
بين الفرس والرومان الشرقيين أهناً بالاً ولا أعز شأننا ولا أكثر
حرمة منها بين العرب

ومن المعلوم ان أحسن القوانين ما لا يشتمل على التضيق ويلائم
فريقاً دون فريق وكذلك جاء القرآن الكريم والسنة السمحة بتلك
النواميس التي تلائم بلا ريب أرقى الامم تحضراً وأصدقهم فكراً كما

تلائم وتنطبق على الامم الذين لا يزالون في مهد الفطرة الاولى .
ساوى الاسلام بين الذكران والاناث في جميع التكاليف الشرعية
الا في احوال خاصة قليلة كما ساوى بين الصنفين في الحقوق المدنية وجعل
لكل أن يتقاضى حقه من الآخر وأن يبيع ويشترى ويعقد ماشاء من
العقود مادام عاقلاً رشيداً

جاء بذلك الاسلام منذ ثلاثة عشر قرناً فتمتعت النساء بما ملكت
أيمانهن من غير توقف على اذن زوج أو تقرير مسيطر مع ان معظم أمم
أوروبا لم يطلقوا العنان للمرأة ان تتصرف فيما ملكت يدها اللهم
الا ما أدخلته الحكومة الانجليزية وقليل غيرها من أهل أوروبا منذ
ثلاثين سنة من القوانين التي خولت للمرأة فيها شيئاً من ذلك ولم يكن
هذا معروفاً فيهم من قبل

جاء الاسلام وقد كانت المرأة لا تكاد تمتاز عن الحيوانات العجم
لا تقرأ ولا تفهم ولا تستفتى في أمر ولا تقضى ولا تأمر ولا تنهى فهلا
علمت ما فعل الاسلام؟ جاء النبي فكان في بيته أحسن أسوة للمسلمين وما
زال صلى الله عليه وسلم تنزل عليه الآيات في شأن النساء حتى اصبحن
ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف

أوجب الله تعالى تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة كما أوجب على
أمهات المؤمنين أن يعلمن الناس ذكورهم واناثهم (وأذكرن ما يتلى في
بيوتكن من آيات الله والحكمة) فكان الرجل (وكان ما كان في الجاهلية)
يأتي اليهن ويستفتيهن ويتلقى ما يلقيه من أحكام الله ومكارم الاخلاق

وبذلك أخذت عقول الرجال ترجع الى رشدها وتعلم ان لا دخل لاختلاف
الصف أو الشعوب أو الامم في التفاضل فقد جعل الله التفاضل بين
الكائنات تابعا لما فيها من الفضل والمزايا والخصيصات (الرجال قوامون
على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) لم يقل
الله ان الرجال قوامون على النساء مسيطرون عليهن بمقتضى الفطرة
البشرية أو لان عقولهم تخالف عقولهن ولكن الله جعل انفاق الرجل
على المرأة من علة الفضل كما جعل من العلة أيضا ما قد يمنح الله القوامين
على النساء من المزايا ولولا ذلك ما كان للرجل قوامة على المرأة ومن ذا
الذي يستطيع أن يعتقد فضل بدوى عقله أخلى من أرض البادية على
المرأة التي وصلت الليالي بالايام في طلب العلم حتى تثقف عقلها وتهذب
نفسها كلا ان الله لم يجعل التفاضل الا حيث يكون ما منح من الفضل
كما قال (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال (هل
يستوى الاعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور)

أباح الشرع للمرأة مادامت من أهل التصرف في مالها أن تزوج
بنفسها وأن توكل غيرها في زواجها ولا اعتراض عليها الا أن تضع المرأة
نفسها في غير كفء فهناك يعترض الولي عليها ويطلب من القاضي
فسخ زواجها

جعل الشارع للمرأة أن تشرط في صلب عقدها أن يكون أمرها
بيدها تطلق نفسها من الرجل متى شاءت

ففي الدر «ان تزوجها على أن أمرها بيدها صح» قال ابن عابدين

هذا مقيد بما اذا ابتدأت المرأة فقالت زوجتك نفسى على ان امرى بيدي
فقال الزوج قبلت « اه بتصرف (١) ولقد يعترض على قسمة الموارث
من لم يتدبر اذ قضى للمرأة ان يكون لها نصف نصيب الرجل فيتوهم
ان في هذا اجحافا بحقوقها ولكننا عند التأمل نجد لها قد زاد حظها وجل
نصيبها وذلك ان المرأة كما سيأتى عالة على الرجل في معظم أدوار حياتها
فيجب عليه شرعا أن ينفق عليها ويأتي إليها بمطالبها كما يقتضيه عرف القبيل
الذي هما فيه فاذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال أن يقوموا
بجميع حاجاتها بالمعروف. فتقدير الشارع لها حظا من الموارث غاية في
الرأفة بها ورعى جانبها والعناية بشأنها

فأين حجر الاسلام على المرأة وأين التضيق عليها مع هذه المساحة



فصل في تعدد الزوجات في الاسلام

تقدم لنا التلميح الي ما حشابه الاوروييون كتبهم من الطعن في
الاسلام متمسكين بما أباحته الشريعة من اباحة تزوج أكثر من واحدة
ولو كانوا يعرفون العربية ويفقهون كتاب الله وقواعده ما استطاعوا أن
يلصقوا بالاسلام ما ليس من شيمه

ان النقائص التي مثلت بالاسلام في أعين غير أهله انما نشأت من

(١) السطور الموضوع تحتها خطوط لم تكن في الطبعة الاولى وقد زادها

المؤلف بخطه في النسخة التي نقلنا عنها

اعتبار أعمال الخلف الطالح ميزاناً لتقدر بها قوانين الشرع ونواميسه فمن
قائل بسد باب الاجتهاد ومن امام أو خليفة قضت عليه أغراضه البهيمية
أن ينتهك حرمة الله ثم يحارب الله فينسب اليه ما ليس من دينه في شيء
ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة فأفتى بما يطابق أهواءه ملك أو أمير
تذرعاً لي الزلفي منه . ومن أحمق أرعن لم يرض من اليسر ما رضي الله لعباده
فشط بالناس واعنسف بهم حتى ضاقت نفوسهم وأيقنوا بالعجز عن
احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون

جاء القرآن فأباح أن يتزوج الانسان مثنى وثلاث ورباع ولكن
الله تعالى يقول فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة ففراه قد شرط اباحة تعدد
الزوجات بالعدل كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سبباً كافياً في تحريم
التعدد ثم نراه قد اعتبر البشر عاجزين عن العدل بين النساء ولو حرصوا
فما بالنا مع جميع ذلك نرى كثيراً من المسلمين يفقهون بعض آيات الكتاب
دون بعض ؟ عجباً أغفل الناس كثيراً من القواعد الاسلامية التي يجب
تقدير الاعمال بها ووزنة التصرفات الانسانية بميزانها

واعلم أن المعتزلة وهم كما تعلم من المسلمين يقولون بعدم جواز أن
يتزوج الرجل ثانياً مادامت الاولى في عصمته كما ذكره الامير علي في
كتابه « سر الاسلام » وما ذلك الا لانهم تتبعوا ما يجلبه ذلك من المفسد
والمضارة وعرفوا ان من أصول الشريعة المحمدية اعطاء الوسائل ما للغايات
من الاحكام فرأوا آثار تعدد الزوجات كثيرة سيئة لا يستحسنها عقل
ولا يرضى بها شرع فحكموا بتحريمه

لم يصرح القرآن بتحريم تعدد الزوجات بتاتا وذلك لانه ارسل
رسوله للناس كافة بشيرا ونذيرا ولا ريب ان ثمة احوالا يحسن او يجب
فيها تعدد الزوجات ولا يمكن لاحد الفرار من الاعتراف بوجود كثير
من الاحوال التي تقتضى ذلك ولا ضرب لك مثلا رجلا تزوج امرأة
فأصابها مرض مزمن ورجلا تزوج امرأته فكان يستمر معها الحيض الى
خمسة عشر يوما ورجلا تكره امرأته المباشرة في كثير من أشهر الحمل
وهلم جرا فأمثال هؤلاء الرجال اما ان يصبروا مع العنت والشقة
وقليل الصابرون واما ان يأتوا الفاحشة وأولئك هم الخاطئون

انى لا أرى كما يرى كل عاقل ان تعدد الزوجات بالغة مثالبه ما بلغت
أسلم عاقبة من اتيان الفاحشة ومن الشواهد التي يحسن ذكرها ما نقله
الامير على في كتابه « سر الاسلام » عن السيدة غوردون الانجليزية
انها تأملت في احوال كثير من البلاد الاسلامية والشرقية اجمالا فرأت
ان تعدد الزوجات اكثر ما يكون في البقاع التي تكثر فيها الفاقة وتقل
فيها المرافق فيصعب على النساء الاعتماد على انفسهن في تحصيل المرافق
والاخذ بأسباب العيش وقد رأت تلك السيدة ان هذه احدى الضرورات
التي يخول معها التعدد

جمعتي المصادفات برجل اسباني قابلته في لوندرة فمكثنا نتحدث
في كثير من مسائل الدين الاسلامي فما خضنا فيه أمر تعدد الزوجات
فقال انه يتمني لو كان مسلما فيتزوج امرأة غير زوجته فسألته في ذلك فقال
ان امرأتى قد أصيبت بجنون وهامى تلك تعالج في بيمارستان « مجريط »

ولها على ذلك سنون كثيرة ولقد اضطرني الامر أن اتخذ بعض الاخذان لعدم استطاعتي التزوج بأخرى فلو ان هذا كان مباحا لنا لكان لي عقب شرعي يرثني فيما لدى من المال الكثير ويكون لي قرّة عين وخير رفيق أطمئن به وأسكن اليه

ثم تقابلت في ا كسفورد مع دكتور فاضل وقد جرت عادة الانجليز انهم متى رأوا غريباً سألوه في جميع ما يلج في صدورهم . سألتني ذلك الدكتور عن وجه تعدد الزوجات في الاسلام وذكّر انه يستبجحه فما زلت به حتى كاد يذعن لما أبدت له من الاسباب ثم قال انني أ كادأرى وجه ما تقوله ولكن لي كلمة في نبيكم صلى الله عليه وسلم فقلت ماهي قال ان منزلة النبوة التي ادعاها كان يجب أن تحول بينه وبين ا كشاره من عدد الزوجات فعند ذلك قلت له انني ياسيدي كثير التجارب وقد رأيت في الانجليز وفي المصريين والأتراك والفرنسيين وغيرهم من الامم من لا يقنع بواحدة ولا يعكف على ما أحل الله مادام يملك شيئاً من المال وهذا أيها السيد أحد الاسباب في قلة عدد ذراري الاغنياء والمثريين وكثرة عيال الفقراء والمعوزين ولو ملكت أيديهم فضلاً من المال والسعة لما قنعوا بما أتوا أو افتنكر بعد ذلك ان تعدد الزوجات ادعى للعفة والحصانة وأضمن لنمو بني الانسان . فما كان من ذلك الفاضل الا ان قال ان معظم ما قلته حق لا مرء فيه ثم ذكرت له اسباب ا كشار النبي من النساء مما سنأتي عليه بعد وانما لم أبدأ بذكر تلك الاسباب لاني قصدت الزامه من أول الامر بضرورة تعدد الزوجات في بعض الاوقات أخذاً مما عليه

الناس في أحوالهم الدنيوية التي لا يسهه انكار شيء منها فلما أضعفت من
قوة تعصبه وفلتت من حدته أخذت أسردله الاسباب التي لم يجد لانكار
شيء منها سبيلا

والخلاصة ان اعتبار كون تعدد الزوجات مصدراً لكثير من
المفاسد انما هو أمر اضافي ولا يمكن اتخاذه حكماً عاماً فان ذلك يختلف
 باختلاف الامم والازمنة والامكنة والاحوال . انظر الى ما كان معروفاً
 في بدء النصرانية من استقباح الزواج رأساً وتقييح المتزوجين
 وتفضيل الرهبانية

ولقد قضت الرهبانية في العصر الخالية ان يقبر في الديور كثير
 من العقول الذكية التي لم يجن منها عالم الحياة الدنيا أقل فائدة أما منشأ
 ذلك فقد كان اما تقليد المسيح عليه السلام أو بعض أسباب أخرى كالتفرغ
 المطلق الى عبادة الحق تعالى ولا يزال قسوس الكاثوليك يذهبون ذلك
 المذهب ويزدرون المتزوج لما دنس نفسه بميله الى الشهوات الحيوانية
 قالوا ان المسيح عليه السلام روح الله فكان أقدر الناس على غلبة شهواته
 وقارنوا بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم القائل « لا رهبانية في الاسلام »
 ثم انتهى بهم القياس الى الخط من كرامة الاخير وقالوا شتان بين من
 غلب نفسه وبين من استرسل مع هواها فأرضاهها ولا يخفى بطلان هذه
 القضية فانه لا تنافي بين الصلاح والزواج على ان تقليد المسيح في رهبانيته
 لا يبلغ غايته الا بخراب البيوت وتلاشي الامم وانقراض النوع الانساني
 ولا يخفى ان هذا ينافي مقتضيات العمران . ومطالب نظام الاكوان .

لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم فيما أتاه بدعا من الرسل فذاتك
موسى وداود عليهما السلام تزوجا كثيرا من النساء وهما ذاتك الرسولان
الذاتان لا يسع نصرانيا ولا يهوديا انكار نبوتهما أو احتقار ما أتيا به من
الصحف السماوية الاولى . هذا ونذكر لك هنا في زوجات المصطفى صلى
الله عليه وسلم ما فيه غناء ان شاء الله تعالى فنقول . اعلم ان اكثر المسلمين
اتفقوا على ان للنبي صلى الله عليه وسلم من الخصائص ما لم يكن لغيره من
أمته وذكروا أشياء منها تجاوزت بالزوجات العدد الذي أباحه لغيره بشرطه
ولا يخفى ان مثل هذا لا يكفي لا قناع غير المسلمين الذين نددوا بالنبي
عليه الصلاة والسلام ولم يجدوا في كتب المسلمين ما ينهض حجة لهم اللهم
الا قليلا ممن أيده الله بروح منه فتريد أن نذكر لك من أسباب ذلك
ما فيه مقنع ان شاء الله

فَاعْلَمْ ان أول أزواج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة زوجها قبل البعثة
وهو ابن خمسة وعشرين على انها كانت بنت أربعين سنة
قضى النبي صلى الله عليه وسلم شيبته وطائفة من كهولته ولا
زوج له الا خديجة ماتت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنوات بعد
ان مكثت مع النبي صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ولدت له فيها
جميع أولاده ما عدا ابراهيم فلم يتزوج النبي قبل بعثته من شاء وهو في
ريعان شبابه وقد كانت العرب على ما علمت يكثر من الزوجات حتى
ان منهم من كان تحته العشرون في وقت واحد فلو كان هناك سلطان
للهورى على قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم لاتخذ من الزوجات

من شاء وهو في مقتبل شبابه واستكمال قواه الطبيعية لا شرع
يحول بينه وبين بغيته ولا عادة تمنعه مراعتها من قضاء ما ربه لاسيما وقد
كان مرغوباً فيه بين الناس لما اشتهر من مكارم أخلاقه وجميل خصاله
بعد ان ماتت خديجة بيضعة أشهر تزوج النبي صلى الله عليه وسلم
سودة وكانت أيتامات عنها زوجها عقب رجوعه من الهجرة الثانية الى
الجبشة وقد كانت أسلمت رضى الله عنها وخالفت بني عمها وأقاربها فما
أجمل ما عمله النبي من الرحمة بها وتعويضها خيراً مما فقدت فقدمت عنها
زوجها ولا حاشى لها دون أقاربها الذين أسلمت رغم أنهم فكان تزوج
النبي بها حماية لها أن تصل اليها يد الأذى كما كان ذلك اكبر سلوان لها
على فقد زوجها

مات أبو طالب لشهر من موت خديجة فققد النبي بموته رجلاً
كان يناضل عنه ويدفع عنه أعداءه ما استطاع فأخذ الأمر اذ ذلك يشتد
على النبي صلى الله عليه وسلم فرأى ان يوثق الرباط بينه وبين قريش فعقد
على عائشة وهي اذ ذلك بنت سبع فان أباهما الصديق رضى الله عنه كان
صدراً وجيهاً في قريش واسع المال عزيز الجانب يدلك على ذلك مسارعة
النبي صلى الله عليه وسلم بالعقد عليها مع انها قاصر وانه لم يبين بها الا بعد
ذلك بنحو سنتين فلم تكن وقت ذلك مطمئناً لقضاء شئ من المآرب
الشهوية حتى يطمح اليها نظر النبي أو غيره

ومن هذا القبيل تزوجه صلى الله عليه وسلم بام حبيبة بنت أبي سفيان
وكانت ببلاد الجبشة في الهجرة الثانية مات عنها زوجها هناك وما هو

الا أن انقضت عدتها حتى أبلغها النجاشي انه قد كتب اليه رسول الله
صلى الله عليه وسلم ليزوجه اياها .

كل من اطلع على التاريخ يعلم مقدار ما كان بين النبي وبين بني أمية
من العداة كما يعلم انه قد كان أبو سفيان ألد بني أمية عداوة لرسول الله
وللمسلمين فانه لم يدخل في الاسلام الا بعد ان نال المسلمين ما نالهم من أذاه
الشديد فزوج النبي عليه السلام أم حبيبة ليكون بينه وبين ألد أعدائه لجملة
نسب تكون له في الجملة وسيلة الى حملهم على تقليل الاذى عنه كما انه صلى
الله عليه وسلم اختارها لنفسه لانها خرجت من ديارها فارة بدينها ففي
عدم حمايتها ووقايتها وقد مات زوجها تعريض لها الى مقاساة المصاعب
والاهوال وانما اختارها النبي لنفسه لمكاتها في قومها فلوانها زوجت بغير
كفء لاتخذ بنو أمية ذلك شبهة يوغرون بها صدور يوتاتهم ويحرسونهم
بالمسلمين على قلتهم وضعفهم

كانت الاسرى من النساء يتخذن اماء لا يسوى بينهن وبين الحرائر
في شئ على انهن قلما أعتقن فأراد النبي أن يعلم المسلمين بالعمل ما ينبغي
أن يصنعوا بما في أيديهم من الاسرى من التحرير والكرامة وأن يجعلن
سيدات البيوت فمن ذلك تزوجه بجويرية . قالت عائشة رضي الله عنها
اصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء بنو المصطلق فأخرج الخمس منه
ثم قسمه بين الناس فأعطى الفرس سهمين والرجل سهما فوهمت جويرية
بنت الحرث بن أبي ضرار في سهم ثابت بن قيس فجاءت الى الرسول
فقالت يا رسول الله انا جويرية بنت الحرث سيد قومهم وقد اصابني من

الامر ما قد علمت وقد كاتبنى ثابت على تسع اواق فأعنى على فكاكى فقال
او خير من ذلك فقالت ما هو فقال أو دى عنك كتابتك واتزوجك فقالت
نعم يا رسول الله فقال رسول الله قد فعلت وخرج الخبر الى الناس فقالوا
اصهار رسول الله يسترقون فأعتقوا ما كان في ايديهم من سبي بنى المصطلق
فباع عتقهم مائة بيت بتزوجه عليه السلام اياها. فانظر الى ما قصد الرسول
عليه السلام من تزوجه بها

ومن ذلك أيضاً تزوجه بصفيّة بنت حيي وكانت من أشرف بيوت
اليهود ثم صارت سبياً بعد وقعة خيبر وكانت مما اصطفاها صلى الله عليه
وسلم من الغنائم

وعن ابراهيم بن جعفر عن أبيه قال لما دخلت صفيّة على النبي صلى الله
عليه وسلم قال لها لم يزل أبوك من أشد اليهود لى عداوة حتى قتله الله
فقالت يا رسول الله ان الله يقول فى كتابه ولا تزروا زرة ووزر أخرى فقال
لها رسول الله اختارى فان اخترت الاسلام أمسكتك لنفسى وان اخترت
اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقى بقومك فقالت يا رسول الله لقد هويت
الاسلام وصدقت بك قبل أن تدعونى حيث صرت الى رحلك ومالى فى
اليهودية أرب ومالى فيها والد ولا أخ وخيرتني الكفر والاسلام فالله
ورسوله أحب الى من العتق وأن أرجع الى قومي قال فأمسكها رسول
الله لنفسه وقد رضيته بعلا مع انه كان لها أن ترجع الى أهلها بعد العتق
هذا واعلم ان أمر الثأر فى الجاهلية معروف وقد حاول كثير من
الانبياء كموسى والسيد المسيح وغيرهما حقن الدماء ونسخ تلك العادة

القيحة فلم يفلحوا لما ان ذلك كان أمراً اسخفا في نفوس العرب أشربته
قلوبهم فلم ينجع فيهم دواء حتى أتى النبي فجعل من عقود انكحته ما ربط
كثيراً من القبائل بعضها الي بعض فبذا قرب ما بينها وأزال كثيراً من
احقادها وأطفأ سورة ما في صدورها من الغل والضغائن حتى قلت في أيامه
صلى الله عليه وسلم الغارات وكاد يتناسى امر الثارات

هذا وتتميم لهذا الموضوع نريد ان نذكر كلمة في تزوج النبي صلى
الله عليه وسلم زينب امرأة مولاه زيد

قال الاستاذ الحكيم (١) ان زينب كانت بنت عممة النبي صلى الله عليه
وسلم ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها
لاول الامر حتى انه اختارها لمولاه زوجة مع ابائها واءاء أخيها وعد
هذا عصيانا ولازال كذلك حتى نزل في شأنها آية (وما كان لمؤمن
ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم
ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً)

ولو كان لجمال سلطان علي قلبه صلى الله عليه وسلم لكان أقوى
سلطان عليه جمال البكر في رواه ونصرة جدته وقد كان يراها ولم يكن بينه
وبينها حجاب ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة فكيف يمتد نظره
اليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم الله
عليه بالعتق والحرية . لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر ان تعظم شهوة
الغريب وولعه بالقرب الي أن تبلغ حد العتق خصوصاً اذا كان عشيره منذ

(١) انظر تفسير سورة الفاتحة

صغره بل المألوف زهادة الاقرباء بعضهم في بعض متى تعاشر وافكيف
نظن أو توهم ان النبي الذي يقول الله له (ولا تمدن عينيك الى ما متعنا
به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا) يخالف مألوف العادة ثم يخالف أمر
الله في ذلك أم كيف يُخطر بالبال ان من عصم الله قلبه عن كل دنيسة
يغلب عليه سلطان شهوة في بنت عمته بعد أن زوجها بنفسه لعبد
من عبيده

ان النبي لم يبال باباء زينب ورغبتها عن زيد وقد كان لا يخفى عليه
ان نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شؤون
المعيشة فما كان له وهو سيد المصلحين ان يرغم امرأة على الاقتران برجل
وهي لا ترضاه مع ما في ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين لولا ان
النبي يجد من نفسه ان هذا القران مقدمة لتقرير شرع وتنفيذ حكم الآهي
ذلك ان التصاق الادعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمراً تدين به
العرب فكانوا يعطون الدعوى جميع حقوق الابن ويجرون عليه وله جميع
الاحكام التي يعتبرونها للابن حتى من الميراث وحرمة النسب فأراد الله
محو ذلك بالاسلام حتى لا يعرف من النسب الا الصريح (وما جعل
ادعياءكم ابناءكم) ثم قال (ادعوهم لا آبائهم هو اقسط عند الله فان لم تعلموا
آبائهم فاخوانكم في الدين ومواليكم) فيبين الله ان ليس للتبني الا حق
المولى والاخ في الدين

وكان من عادة المصطفى ان يبادر في كثير من شرائعه الى اقامتها بنفسه
ليكون قدوة حسنة ومثالاً صالحاً تحاكيه النفوس وتحتذيه الهمم وحتى

يخف وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة وعلى هذه السنة جاء
توجه زينب إذ ألهمه الله تعالى أن يتولى الأمر بنفسه في أحد عقائده
لتسقط العادة بالفعل كما ألغى حكمها بالقول الفصل فبعد أن صارت زينب
إلى زيد لم يلبس أبؤها الأول ولم يسلس قيادها بل شمخت بأنفها وذهبت
تؤذي زوجها وتفخر عليه بنسبها وبأنها أكرم منه عرقا وأصرح منه حرية
لأنه لم يجر عليها رق كما جرى عليه فشكا ذلك إلى النبي غير مرة وهو يقول
له (أمسك عليك زوجك واتق الله) إلا أنه لم يستطع الصبر على معاشرتها
فطلقها ثم تزوجها النبي ليمزق من حجاب تلك العادة كما قال تعالى (لكيلا
يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان
أمر الله منفعولا) وأكد ذلك بالتصريح في نفي الشبهة بقوله (ما كان محمد
أبا أحد من رجالكم) وقد قالت العرب إذ ذاك تزوج محمد حليمة ابنة
قال أبو بكر بن العربي فأما قولهم إن النبي صلى الله عليه وسلم رآها
فوقعت في قلبه فباطل فإنه كان معها في كل وقت وموضع ولم يكن ثمة
حجاب فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويحظرها في كل ساعة ولا تقع في قلبه
إلا إذا كان لها زوج وقد وهبته نفسها وكرهت غيره فلم يخطر ذلك بباله
فكيف يتجدد هوى لم يكن أه ملخصاً

وهكذا كانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم في جميع زواجه فلم يكن
النبي صلى الله عليه وسلم في هذه السنوات التي أكثر فيها من الزوجات
أخضع لشهوته منه وقد كان فتياً لم يكلف بشيء من أعباء الرسالة ولم ينزل به
من أذى قریش وعدائهم ما كان يضعف عن احتماله لولا أن جعله الله من

الصابرين هذا كله على فرض أن أنكحة النبي صلى الله عليه وسلم كانت كلها
أو بعضها بعد نزول آية (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث
ورباع) أما إذا كانت قبل ذلك كما حققه الامير على في كتابه سر الاسلام
فلا حاجة الى التماس شيء من تلك الاسباب . قال الامير على ان
ميمونة بنت الحارث كانت آخر من تزوج النبي صلى الله عليه وسلم وكان
ذلك في السنة السابعة للهجرة ولم تكن الآية نزلت بعد ثم ان الله تعالى
بعد ذلك لم يبح للنبي أن يتزوج على من عنده كما فرض عليه ألا يتبدل
بهن أزواجاً أخريات فقال (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن
من أزواج ولو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك) أي الا من سبق
لك التزوج بهن

وهنا مسألة أولع بايرادها كثير من أحداث هذا الزمان قالوا الم جاز

تعدد الزوجات على شرط دون تعدد الأزواج

فاعلم ان ذلك يفضي بداهة الى اختلاط الانساب فيقع اللبس في

نسبة النسل ولا يخفى ان ذلك يفضي الى تعطيل كثير من الاحكام

الدينية كالنفقة والارث وغيرها

وهنا مسألة أخرى وهو انه لم جاز للمسلم أن يتزوج كتائية بخلاف

العكس وجوابها ان الاسلام جعل لكل كتابي أن يبقى على دينه فالكتائية

في يد المسلم آمنة على دينها بخلاف العكس فان المسلمة في يد الكتابي

لا تأمن أن تفتن في دينها فانه لا وازع له من دينه يحول بينه وبين فتنة غيره

لا سيما من له عليه سلطان كزوجته والناظر لما يفعل دعاة النصرانية في

العصر الحاضر يرى جلياً وجه ما قلناه ومن هنا يعلم ان المرأة لم تبخس شيئاً
مما منحه الرجل



٩

الطلاق

مما عدّ وصمة في الاسلام اباحة الطلاق ولذا ينبغي لنا أن نأتي ببيان
مما سيكشف لك ان شاء الله وجه الصواب فيه فنقول
اعلم أن الطلاق أباحه الله تعالى للمسلمين لانه قد تدعو اليه الضرورة
أما حيث لا ضرورة فسماه النبي صلى الله عليه وسلم أبغض الخلال الى الله
كما ان المسلمين اتفقوا على النهي عنه عند استقامة الزوجين فمنهم من قال
انه نهى كراهة ومنهم من قال نهى تحريم وقد رأت الحنفية تحريم الطلاق
بلا سبب ويؤيد ذلك انه اضرار وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه في
قوله لا ضرر ولا ضرار ولقد كره النبي صلى الله عليه وسلم أن يطلق زيد
زوجته زينب مع انها كانت تكثر من ايدائه والاستخفاف به حسبما
تقدم لنا آنفاً أما الطلاق بسبب فلم يرفضه أحد ولكن اختلفوا في بيان
الاسباب قال ابن عابدين وأما الطلاق فالاصل فيه الحظر أي الحرمة.
والاباحة للحاجة الى الخلاص فاذا كان بلا سبب أصلاً لم يكن فيه حاجة
الى الخلاص بل يكون حمقاً وسفاهة رأى ومجرد كفران النعمة واخلاص
الايداء بها وبأهلها وأولادها ولذا قالوا ان سببه الحاجة الى الخلاص عند
تباين الاخلاق وعروض البغضاء الموجبة عدم اقامة حدود الله تعالى فحيث
تجرد عن الحاجة المبيحة له شرعاً يبقى على أصله من الحظر ولذا قال تعالى

فان أظنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا أي لا تطلبوا الفراق اه
أما غير المسلمين ففهم من لم يجوز الطلاق أصلا الا للزنا كالامة
الانكليزية فأيهما اقترفه كان للآخر أن يرفع الامر الى المحكمة ليفصل
القاضي بينهما. أما أهل الولايات المتحدة بأمريكا فكانوا على هذه السنة
ثم وجدوا ان هناك أسبابا أخرى يتحتم معها الطلاق ولكن لافرة
عندهم الا بقضاء قاض ولا بد لجميعهم أن يرجعوا الى ماقرره الاسلام
من الاسباب

نعم ان الشريعة الاسلامية لم توقف تنفيذ الطلاق على حكم الحاكم
وقصار النظر من الناس يرون ان الاول أعدل لان فيه محاسبة الرجل
والمرأة على مايعملان فلم يخل السبيل للرجل يفعل ما يريد ولكن دين
الاسلام أقوى ركننا وأحكم وضعا وأبعد مرمى فلم يفعل ذلك الا لحكمة
صالحة ذلك ان في تطبيق الطلاق على حكم القاضي بثبوت الزنا أصبح تشهير
للمقترف وأشنع سبة تنفر عن مرتكبه القلوب وتشوه سمعته في العالم
لا سيما في مثل هذا العصر الذي تطوف جرائده في الشوارع والأزقة
والدكاكين والبيوت والمصانع وتنتقل من أرض الى أخرى ومن يدالي
غيرها مشحونة بتفاصيل مايعرض على المحاكم من هذه القضايا آتية على
ماقل منها وماجل فمن ذا الذي يقبل على تزوج رجل أو امرأة قطعت
سمعتها الشعاء المشارق والمغرب ؟ يقضى ذلك الرجل وتلك المرأة مابقى
من العمر مردولين مجفوين ولو استقاما بعد ذلك وأصلحا أما الاسلام
فانه جعل للقاضي فسخ الانكحة في أمور لا بأس في اعلانها بل ان

اعلانها هو المصلحة الكبرى من ذلك الجب والغنة والجنون والبرص
والجذام والاعسار بالنفقة والكسوة والمسكن مما تراه مبسوطا في كتب
الفقه متى رجعت اليها . أما غير هذه الاسباب مما قد يزول أولا كبير
خطر في بقائه فللرجل أن يطلق من غير ان يكلف بيانا فيه فما أجل ستار
الشرع الذي يخفي كثيرا من النقائص رجاء ان تزول من قبل أن يظهر
عليها أحد وما أرافه بالانسان الذي قد يهفو ثم يبدو له فينيب
هذا . واعلم ان الديانة المسيحية لم تمنع الطلاق أصلا وغاية
ماورد في الانجيل ان من طلق امرأته وتزوج أخرى فهو زان وهذا
لا تعرض فيه لحكم الطلاق أصلا

واعلم ان الطلاق في الاسلام كما هو معلوم حق من حقوق الزوج
(الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا
من أموالهم) ولكن الاسلام مع ذلك قد جعل للمرأة كما تقدم ان
تشرط في العقد ان تملك ذلك كما عليه الحنفية فاذا لم تشرط ذلك هي
أو وليها فقد أقرت الرجل على الحق الذي خوله له الشرع ولكن مع
ذلك لا يجوز له أن يوقعه الا حيث يراه الشرع حسنا صالحا كما تقدم
هذا ولم يعتبر الاسلام زنا الرجل من الاسباب التي تطالب بها المرأة
فسخ الزواج ولا العكس الا ممن قذف امرأته أو رماها بالزنا أو نفى حملها
ولا بيئة له فان له أن يلاعن زوجته وتلاعنه ثم يفرق القاضي بينهما
والسبب في ان هذه التفرقة لم تبين على مجرد الزنا من حيث هو زنا
بل من حيث ما يستتبعه من الاحكام الدنيوية المتعلقة بما عسى أن يكون

من الاولاد ولذا كان رمى المرأة للرجل بالزنا لا يصلح علة للفرقة بل ان
لهذا حكما آخر ليس هذا موضوع الكلام فيه
فما تقدم لنا هنا نرى ان الاسلام لم يجز في جميع ما سردناه عليك
هنا الا على مقتضى أصل الفطرة فرفع شأن النساء حتى ساوين الرجال
فيما يمكن من المزايا والحقوق ثم لم يخسهن شيئاً كما أباح للرجال ما أباح
من تعدد الزوجات والطلاق مقروناً بما وضعه وقرره من الشروط
ولكن - لو أنصف الناس لاستراح القاضي - حارب المسلمون دينهم
وما شرط لهم فكان أكثرهم اباحيين لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس
ما كانوا يفعلون

كان الطلاق قبل الاسلام منتشرأ في جميع أمم العرب يهوديها
ومسيحيها ووثنيها وكذا بين الرومانيين فلقد اعتبر قانون (الموائد الانتي
عشرة) الطلاق جائزاً أما ما تشدق به بعض المتشيعين لهم من أنهم لم
يعملوا بهذا القانون الا بعد خمسة قرون مضت من عهد تأسيس مدينتهم
(رومه) فلم يكن سببه ما يدعون من بغضهم للطلاق ولكن لان الرجل
في تلك القرون كان له أن يقتل امرأته عقاباً لها على بعض الجرائم كالسكر
فكانت عند الرجل كالرقيق كما انها اذا طلبت من زوجها الطلاق اعتبر
ذلك منها فحة ونشوزاً يخول له عقوبتها . نعم ان الرومانيين في أخريات
أمرهم أصلحوا كثيراً من شأن المرأة وأنصفوها اذ ساووا بينها وبين
الرجال في كثير من الاشياء

يقول الامير على ان المعتزلة لا يجوزون وقوع الطلاق الا بحكم

القاضي الشرعي العادل فلا بد أن يمتحن الاسباب بلا تحيز فيوقع الطلاق
أو يرفضه حسبما يراه صالحاً. ومن هنا يظهر ان من طوائف الاسلام من
يعقلون وقوع الطلاق بحكم القاضي فلا يصح عندهم وقوع الطلاق من
الزوج الا بعد محاسبته وامتحان اسباب ما يريد من الفرقة

واعلم ان من أكبر الدلائل على بغض الشرع للطلاق أن جعل للرجل
أن يسترجع امرأته في الطلقة الاولى والثانية لانه ربما كان التطليق لسورة
غضب ثارت فلم يملك نفسه حتى يتروى ويتدبر فرجا الشرع أن يرجع اليه
رشده فيتدارك ما فرط منه حتى اذا طلق الثالثة وجبت عقوبته بعدم جواز
الرجعة حتى تزوج غيره لما تبين من انه سفیه الرأي ضعيف العزم ولا يخفى
ما في هذا الشرط من السر الحكيم واذا أردت زيادة بيان فتدبر قوله تعالى
(وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ان يريد
اصلاحاً يوفق الله بينهما) أيقول الله أن يريد اطلاقاً يفرق الله بينهما أم
ان يريد اصلاحاً يوفق الله بينهما

وتفهم قوله تعالى (خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل
بينكم مودة ورحمة) فقال لتسكنوا اليها ولم يقل لتطلقوها وقال وجعل بينكم
مودة ورحمة ولم يقل بغضاً وقسوة وقوله تعالى (أمسك عليك زوجك)
أمر النبي عليه السلام زيدا بأن يمسك زوجته فلا يطلقها مع انها كما تقدم
كانت تكثر من مضارته واساءته وقال تعالى (فان أظعنكم فلا تبغوا عليهن
سبيلاً) أي فلا تطلقوهن ومن هنا استنتج ان الاصل في الطلاق التحريم
الا لسبب كما تقدم لنا

وزيد أن تأتيك هنا بملخص ما كتبه الاستاذ الحكيم الشيخ محمد

عبيده مما يناسب هذا المقام ليكون له أحسن ختام

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر ان لكل نفس ما كسبت

وعليها ما كتسبت « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة

شراً يره » « وأن ليس للانسان الا ما سعى » وأباح لكل أحد أن يتناول من

الطيبات ما شاء أكل وشرباً ولباساً وزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضاراً

لنفسه أو بمن يدخل في ولايته أو مانعدي ضرره الى غيره . وحدد له

في ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال

لكل شخص في عمله واتسع المجال لتسابق الهمم في السعي حتى لم يعد

لها عقبة تتعثر بها اللهم الا حقاً محترماً تصطدم به أنحى الاسلام على التقليد

وحمل عليه حملة لم يرد لها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس

واقترنت أصوله الراسخة في المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان

في عقائد الامم وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة

طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه

هينمة من سدنة هياكل الوهم « ثم فان الليل حالك والطريق وعرة

والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة »

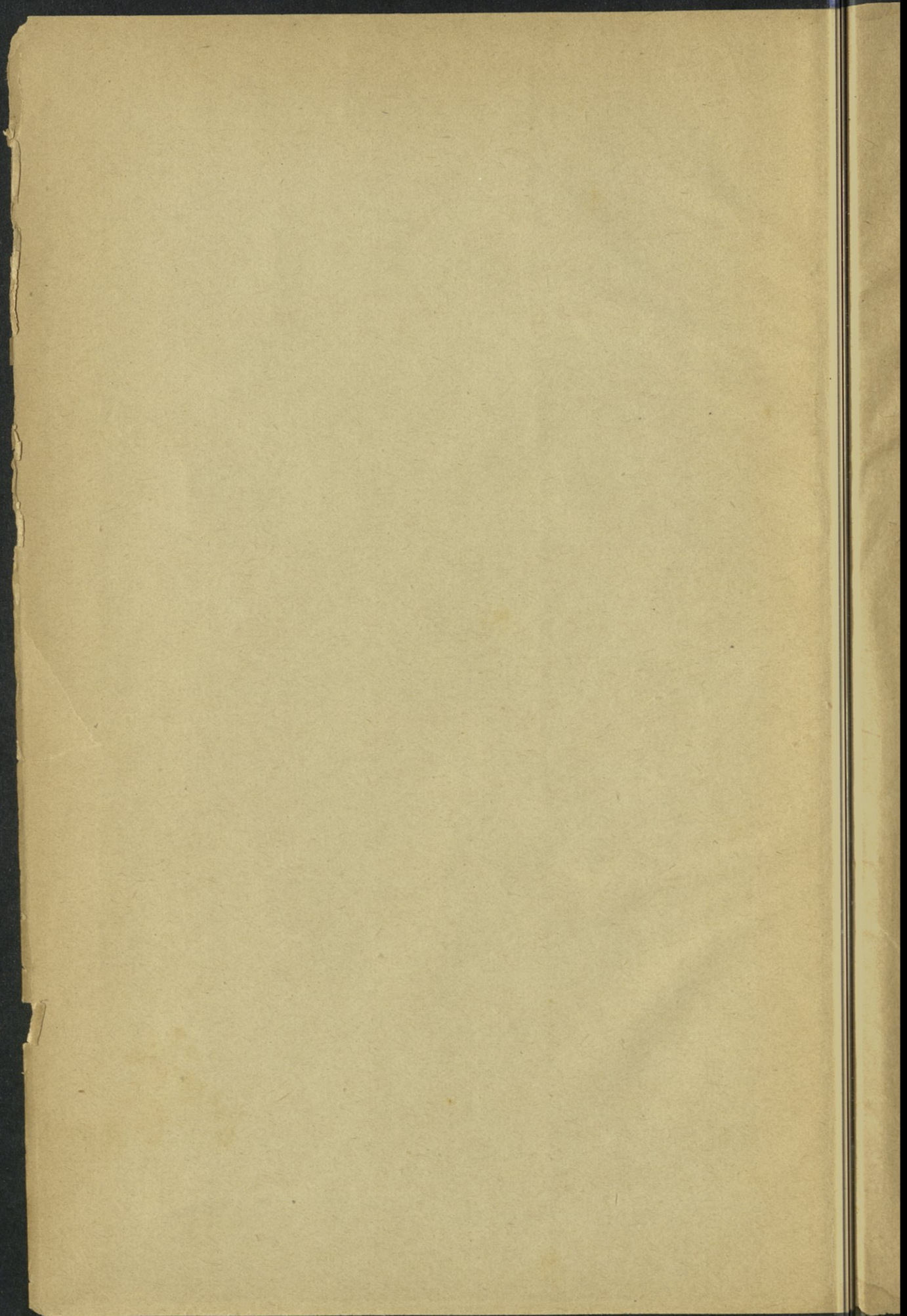
علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الانسان لم يخلق

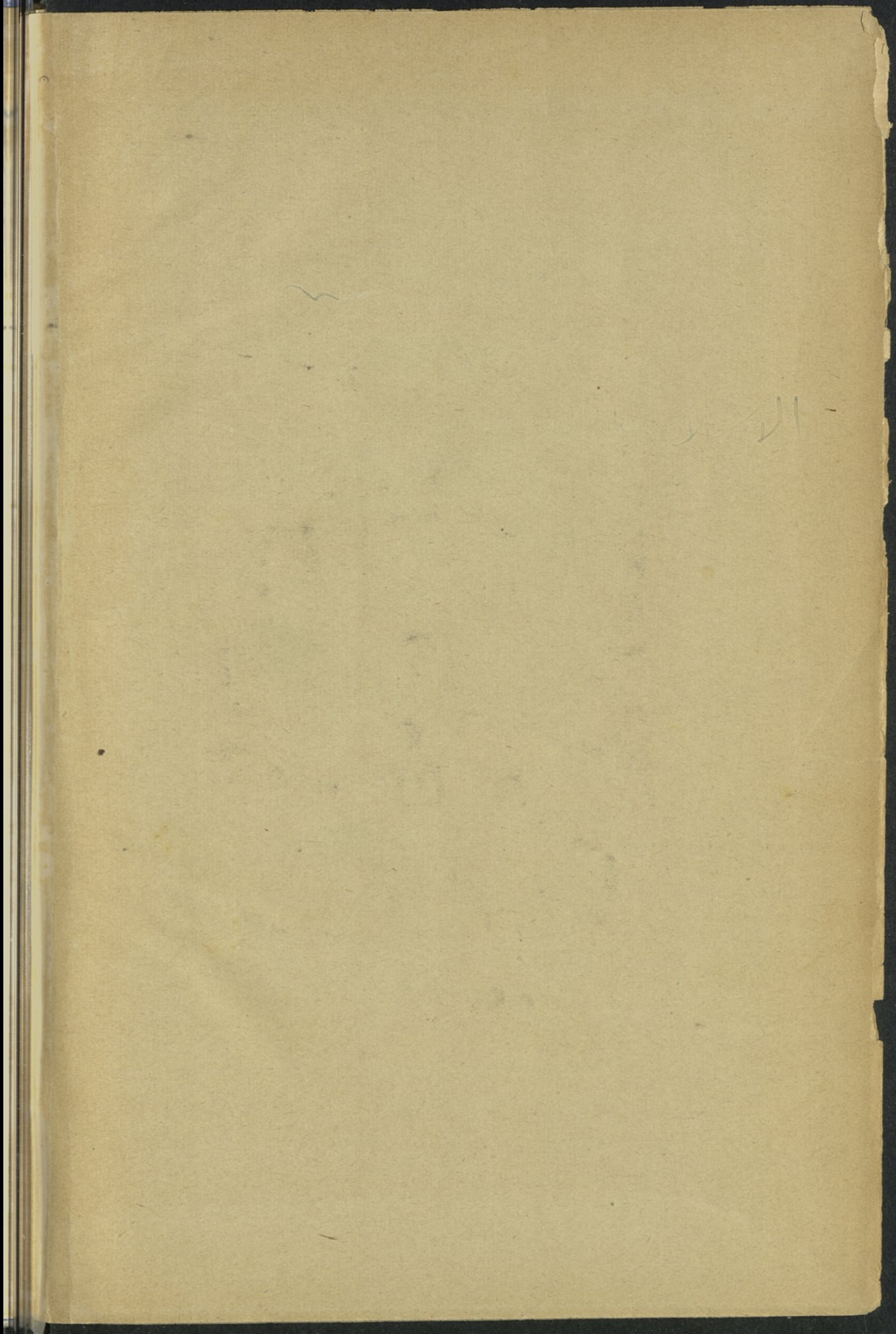
ليقاد بالزمام ولسكنه فطر على أن يهتدي بالعلم والاعلام اعلام الكون ودلائل

الحوادث وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون
صرح في وصف أهل الحق بأهم الذين يستمعون القول فيتبعون
أحسنه فوصفهم بالتميز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا
بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء
فأنزلهم من مستوا كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار
مرؤوسيهم يخبرونهم كما يشاؤون ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون
ويقتضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وماتوارثه عنهم الابناء وسجل
الحق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه على أن السبق في
الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا لعقول على عقول ولا لأذهان
على أذهان وانما السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان بل لللاحق
من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من
آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه وقد يكون من
تلك الآثار التي ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال
من سبقهم وطغيان الشر الذي وصل اليهم بما اقترفه سلفهم (قل سيروا
في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وان أبواب فضل الله
لم تعلق دون طالب ورحمته التي وسعت كل شيء لن تضيق عن دائب
عاب أرباب الأديان في اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عندما اختطته
لهم سير أسلافهم وقولهم « بل تتبع ما وجدنا عليه آباءنا » (انا وجدنا
آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون)







297: [REDACTED]

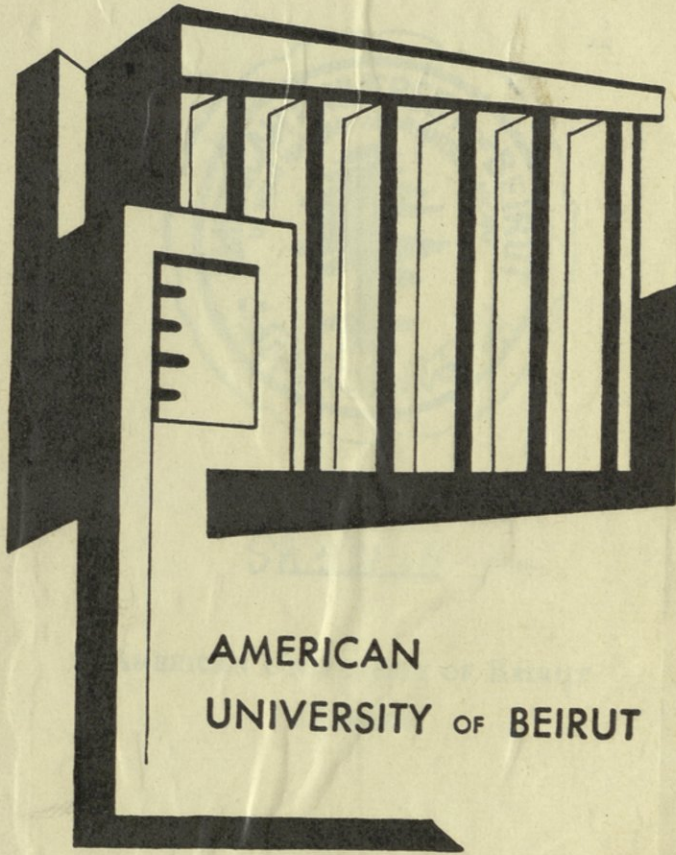
شاويش، عبد العزيز

الاسلام دين الفطرة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01005295



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

